وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة محمد الصديق بن يحيى

كلية الآداب واللغات

قسم اللغة والأدب العربي

لرقم التسلسلي: .....

عنوان المذكرة

شعرية الوصف في أدب الرحلة

رحلة ابن جبير أنموذجا

مذكرة مكملة لنيل شهادة الماستر في اللغة والأدب العربي

تخصص: أدب قديم

إعداد الطالبة:

- وناسة بودرع

إشراف الأستاذ:

- عبد الرحمن مزرق

لجنة المناقشة

1- الأستاذ:السعيد بوالعسل..... جامعة جيجل ..... رئيسا

2- الأستاذ:عبد الرحمن مزرق ..... جامعة جيجل ..... مشرفا

3-الأستاذ:محمد بوالخطوط..... جامعة جيجل ..... ممتحنا

السنة الجامعية 2019/2018

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

دعاء

سبحانك لا علم لنا

إلا ما علمتنا إنك أنت العليم

الحكيم.اللهم أخرجنا من ظلمات

الوهم وأكرمنا نور الفهم وافتح

علينا معرفة العلم و يسر

أخلاقنا بالحلم .

شكر وعرفان

أولا نحمد الله عز وجل الذي وفقنا لتتويج عملنا وبكل معا بـ الشكر والعرفان نتوجه لكل من أمدنا بالمساعدة سواء من قريب أو من بعيد ووقف إلى جانبنا لإخراج هذا العمل على هذه الصورة، وإن كان لنا أن نخص أحدا بالذكر فلا يسعنا إلا أن نقدم خالص شكرنا وامتناننا للأستاذ القدير الذي أشرف على هذا العمل "**عبد الرحمن مزرق**" مثنـ ـة على توجيهاته الثمينة.

إهداء

إلى روح أح الحبيب ...

مقدمة

مقدمة:

ازدان التراث العربي بفن لم يوجد عند كثير من أمم الدنيا، وإن كان فليس بالسعة والانتشار الذين عرف بهما بين الرحالة العرب والمسلمين.

إن أدب الرحلة فضاء خصب للبحث والدراسة والتحليل، كونه حمال علوم وآداب ... ففيه لمن أراد التاريخ مبتغى ومقصد، وفيه لمن أراد المتعة والسياحة ملجأ ومهرب، ولكن فيه قبل هذا وذاك جمالية وفن، وفي هذه الدراسة اعتناء خاص بجانب شعرية الوصف في هذا الجنس، حيث كان اختيارنا لهذا الموضوع بالذات دون غيره، "**شعرية الوصف في أدب الرحلة– رحلة ابن جبير -أنموذجا** "لأنه من جهة خاص بتجربة أدبية لها جذورها الضاربة في عمق التراث العربي، ومن جهة أخرىفهو فضاء يغري بالقراءة الممتعة كونه يلقي الضوء على جمالية نص الرحلة، كما أنه يتيح لنا التقرب من رحالة مميز مثل "ابن جبير" الذي يشار له بالبنان كلما استحضر الوصف في أدب الرحلة العربي القديم.

والأكيد أن هذه الدراسة لم تكن هي الدراسة الأولى التي تناولت الرحلة في الأدب العربي القديم، فقد سبقتها العديد من الدراسات والأبحاث التي تناولت جوانب مختلفة فيها ، لكن دراستهم لها لم تكن موسعة، بل هي إشارات تنظيرية في غالبها، جعلت من موضوع الوصف عنصرا جزئيا من بين عناصر عديدة مشكلة للموضوع الأساسي، وتبقى دراسة الباحثة "فوزية قفصي" التي نشرتها في مقال لها الدراسة الوحيدة –على حد علمنا- التي أفرد فيها بحث كامل لموضوع "شعرية الوصف في الرحلة "، على الرغم من أن صاحبتها ركزت فيه على رحلة "ابن بطوطة"فقط دون غيرها، واكتفت أحيانا بإشارات تنظيرية دون التعمق أكثر في دراسة الأمثلة بشيء من التفصيل، وهو ما حاولنا تداركه في بحثنا هذا .

وقد حاولنا من خلال هذه الدراسة الإجابة على الإشكالية التالية :

- إلى أي مدى استطاع " ابن جبير "أن يرقى بالوصف في رحلته إلى أعلى درجات الشعرية ؟

و التي تفرعت عنها التسؤلات التالية:

- ماهي الرحلة ؟وما أقسامها ؟وأين تكمن أهميتها و قيمتها في التراث العربي القديم ؟
- ماهي أهم المفاهيم المتعلقة بالشعرية و الوصف و ما علاقتهما بالرحلة العربية قديما ؟

وللإجابة عن كل هذا كان لابد من خطة نتكئ عليها ، فكانت خطة بحثنا تعتمد على تقسيمه إلى مقدمة، ثم فصل تمهيدي تناولنا فيه بشيء من التفصيل المفهوم اللغوي والاصطلاحي للرحلة و تقسيماتها وأهم تصنيفات الرحالة القدماء، ولإثبات أهميتها في التراث العربي كان لابد من العودة إلى قيمتها الأدبية والعلمية ،و ذلك من خلال تبيان علاقتها بالعلوم المختلفة مثل:التاريخ والاثنوغرافيا من جهة ،ومختلف الفنون الأدبية الأخرى من جهة ثانية .

أما الفصل الأول فقد تناولنا عرضا مفصلا لشعرية الوصف في أدب الرحلة العربي القديم، بدء بتحديد المفهومين اللغوي و الاصطلاحي للشعرية وتتبع مراحل التنظير لها عند العرب والغربيين،ثم تحديد مفهوم الوصف و ووظائفه في الرحلة ، لنصل إلى تحديد العناصر المشكلة لشعرية الوصف الرحلي ،ثم نختم هذا الفصل بتقديم نماذج للوصف في الرحلات العربية القديمة والتركيز على العناصر المشكلة للشعرية .

أما الفصل الثاني والموسوم ب "شعرية الوصف في رحلة -ابن جبير –"فكان خاصا بتتبع خصائص الوصف في الرحلة بدءا بالأشكال البلاغية للوصف، ثم حدود العلاقة بين السرد والوصف والتركيز على دورهما المتكامل في الرقي بنص الرحلة إلى عالم الإبداع والتصوير الفني، وأنهينا هذا الفصل بذكر العمليات القاعدية للوصف، مدعمين كل ما سبق بأمثلة وشواهد موضوعية من الرحلة.

لنصل في الأخير إلى خاتمة تعتبر حوصلة لأهم النتائج التي توصلت إليها هذه الدراسة.

وبما أن كل بحث علمي يتطلب منهجا يتناسب وطبيعة الإشكالية المراد دراستها ، فقد اتبعنا في دراستنا هذه المنهج الوصفي التحليلي والمطعم ببعض الاستقراء ، من خلال تحليلنا لبعض النصوص ومحاولة الوقوف على خصائصها والتي يمكننا تعميمها على بقية النصوص الأخرى .

ووقد اعتمدنا في بحثنا هذا على مجموعة من المصادر والمراجع، ففيما يخص المصادر تعتبر رحلة "ابن جبير" أهمها بالإضافة إلى رحلات بعض الرحالة الآخرين الذين استشهدنا بنصوصهم مثل "ابن بطوطة"، "العبدري"، "ابن فضلان"...

ويتصدر قائمة أهم المراجع المعتمدة مقال الباحثة "فوزية قفصي" المنشور في مجلة الأثر ، والذي ساعدنا في رسم معالم الدراسة التطبيقية، بالإضافة إلى المراجع الأخرى ورغم عدم تخصصها في شعرية الوصف في الرحلة "إلا أنها أفادت كثيرا بحثنا هذا ،على غرار أدب الرحلة لـ "فؤاد قنديل" أدب الرحلة عند العرب لـ "حسني محمود حسين"، أدب الرحلات لـ "حسين محمد فهيم" والرحلة والرحلات في التاريخ الإسلامي لـ "جمال الدين فالح الكيلاني"، والرحلة في الأدب العربي لـ "شعيب حليفي"، وغيرها من المراجع التي أفادتنا كثيرا في دراستنا .

وككل بحث فقد واجهتنا بعض الصعوبات أهمها :ضيق الوقت الممنوح لنا لإنجازه ، مع العلم أن المدونات القديمة تتميز بحجمها الضخم ، وقد يستغرق البحث عن عنصر واحد فقط أياما عدة .

وأخيرا نتوجه بالشكر للأستاذ المشرف "عبد الرحمن مزراق" على سعة صدره، وكرمه علينا بالنصائح والتوجيهات طيلة فترة بحثنا هذا ، ومتابعته إياه خطوة بخطوة، والشكر موصول لكل أساتذة قسم اللغة والأدب العربي مع حفظ الأسماء والألقاب .

الفصل التمهيدي: الرحلة

في الأدب العربي القديم

أولا - حول مفهوم الرحلة

خلق الله تعالى الإنسان وخلق معه غريزة حب الاستطلاع واكتشاف ما يحيط به من أسرار وأخبار، فشده الفضول إلى تجاوز البقعة التي نشأ فيها وألفها إلى بقعة أخرى بحثا عن التجديد لحياته وإكمالا لنقائصه، وبهدف التعرف على أناس جدد و الاقتراب من نمط عيشهم.

وفي التراث العربي الإسلامي أورد القرآن الكريم رحلة الشتاء والصيف في قوله تعالى { **لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ (1) إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ (2)** } الآية 1، 2، من سورة قريش، وقد استعمل العرب الرحلة للتجارة، وطلب العلم، والهجرة من أرض الشرك إلى أرض الإسلام والحج وغيرها من مقاصد الحياة، ما أدى إلى إثراء مضمونها وتنوع مواضيعها.

هذا التنوع في المواضيع والنزاع في المضمون ،بالإضافة إلى انفتاح النص الرحلي على أشكال متعددة من الفنون الأدبية الأخرى ،جعل من الصعب على الدارسين القدامى وضع تاريخ لهذا الفن أو تحديد لشكله والقوانين التي تضبطه واكتفوا بذكر المعنى اللغوي للكلمة.

1 - لغة:

وردت كلمة "الرحلة" في المعاجم العربية كالآتي:

ذكرها الخليل في معجم العين:"رحل: الراحلة: المركب من الإبل ذكرا كان أو أنثى. حتى يقال: ارتحل القوم، والرحيل: اسم الارتحال للمسير، والمرتحل نقيض المحل "[1]

[1]– الخليل بن أحمد الفراهيدي: معجم العين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2003م، ج 2 ،مادة (رحل) ، ص 106.

فقد ربط العرب في لغتهم بين مفهوم الانتقال من مكان إلى آخر وبين الوسيلة المستعملة في ذلك، ومن هذا المعنى جاءت "رحلة" و"ارتحال"و"الرحيل" .

وذكرها "ابن منظور في لسان العرب بقوله: "حلة والرَّحلة والرُّحلة: اسم للارتحال للمسير، ويقال: دنت رحلته ووصل فلان وارتحل (....) وقال بعضهم: حلة الارتحال، والر حلة بالضم، الوجه الذي تأخذ فيه وتريده: تقول أنتم رحلتي أي الذين أرتحل إليهم[1].

وتكاد المعاجم القديمة تكرر المعاني نفسها لمادة "رحل" التي تعني الحركة والسير والانتقال:

وذكرها "ابن فارس" في (باب الراء والحاء وما يثلثهما): (رحل) الراء والحاء واللام أصل واحد يدل على مضي في سفر، ويقال: رحل يرحل رحلة، وجمل رحيل: رحلة، إذا كان قويا على الر حلة، والر حلة الارتحال، فأما الرحل في قولك: هذا رحل الرجل، لمنزله، ومأواه، فهو من هذا، لأن ذلك إنما يقال في السفر لأسبابه التي إذا سافر كانت معه، يرتحل بها وإليها عند النزول، هذا هو الأصل" [2]

جاءت الرحلة في المعاجم العربية القديمة بمعنى الترحل والارتحال أي: الانتقال من مكان إلى آخر، وبمعنى الوجهة المقصودة من السفر، ومنها اشتق لفظ "الرحالة" بصيغة المبالغة (فعّالة) أي كثير الارتحال.

2- اصطلاحا:

إن تعدد مضامين وأساليب التعبير عن الرحلة وكذا تنوع خطاباتها، أدى إلى صعوبة وضع مفهوم محدد لهذا الأدب ، فالرحلة ظاهرة أدبية تتداخل فيها عناصر أدبية وغير أدبية مرتبطة أساسا بالتاريخ والجغرافيا والسيرة الذاتية والتراجم والحكايات والكرامات والشعر والرسائل ...، و"بسبب هذا التشتت ذهب بعض الباحثين إلى إضافة

---

[1]– محمد بن مكرم بن منظور: لسان العرب، دار المعارف، القاهرة ،ج م ع ،د ط، دت ، مادة (رحل)،ص1608.

[2]– ابن فارس: مقاييس اللغة، تح: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، بيروت، لبنان، د.ط، 1979، ج 2 ، ص 497.

كلمة أدب إلى الرحلة (أدب الرحلة) ليفرقوا بينها وبين الرحلة بوصفها حدثا واقعيا لها أهداف ودوافع تخرجها من دائرة الأدب إلى دائرة المعارف"[1]

رغم ذلك فإننا نجد تقاطعات عديدة بين تعريف الرحلة، وتعريف أدب الرحلة، ونخص بالذكر الجانب الواقعي فيها، يقول "فؤاد قنديل" في معرض حديثه عن أغراض الرحلة معرفا إياها بقوله إنها "سلوك إنساني حضاري، يؤتي ثماره النافعة على الفرد والجماعة، فليس الشخص بعد الرحلة هو نفسه قبلها، وليست الجماعة بعد الرحلة هي ما كانت عليه قبلها"[2]. فالتعريف السابق يشير إلى البعد النفعي للرحلة وتأثيرها الإيجابي في الحضارة والسلوك الإنساني، باعتبار الأدب جزء من هذه الحضارة والسلوك وهو لا يشير إلى أي بعد أدبي، فالرحلة:"هي اليد التي تمتد لتقرب شعوبا تناءت عن شعوب، وأقواما إلى أقوام تفصل بينها البحار والقفار"[3].

في المقابل نجد من الدارسين من يشير إلى البعدين الأدبي و المعرفي للرحلة دون الحاجة لإضافة لفظة (أدب) لإكسابها شرعيتها الأدبية و اعتبارها فنا مثل بقية الفنون الأدبية الأخرى على غرار القصة و الرواية والمسرحية وغيرها... يقول "شوقي ضيف":"لا نبالغ إذا قلنا إن الرحلات من أهم فنون الأدب العربي، لسبب بسيط ، وهو أنه خير ردّ على التهمة التي طالما اتهم بها هذا الأدب، ونقصد تهمة قصوره في فن القصة، ومن غير شك من يتهمونه هذه التهمة لم يقرءوا ما تقدمه كتب الرحلات من قصص عن زنوج إفريقية وعرائس البحر وحجاج الهند وأكلة لحوم البشر وضباع الصين وسكان نهر الفلوجا وعبدة النار و الإنسان البدائي والراقي مما يصور الحقيقة حينا، ويرتفع بنا إلى عالم خيالي حينا آخر"[4]. لم يكتف شوقي ضيف بتصنيف الرحلات ضمن فنون الأدب بل جعلها

---

[1]- عبد العليم محمد إسماعيل: تقنيات السرد أساس أدبية الرحلة، جائزة الطيب صالح العالمية للإبداع الكتابي،الدورة الثامنة ص4.

[2]- فؤاد قنديل:أدب الرحلة في التراث العربي، مكتبة الدار العربية للكتاب، القاهرة، ط2، 2002، ص 21.

[3]- المرجع نفسه، ص 22.

[4]- شوقي ضيف: فنون الأدب العربي،الفن القصصي الرحالات، دار المعارف، القاهرة، ط4، 1987، ص 06.

البدرة الأولى التي تشكل منها الفن القصصي العربي القديم، وما تلك القصص التي تخللت الرحلات العربية- والتي مزجت بين الواقع والخيال إلا خير دليل على ذلك، وقد استشهد "ضيف" بقصص تصور العادات و المعتقدات الغريبة لبعض الشعوب، ما يوحي أنها من نسج الخيال الجمعي لها وليست كتابة تخيلية لصاحب الرحلة، الذي يكتفي بنقل تلك الأخبار والأساطير بكل صدق؛ومهما يكن من أمر فإن عنصر الخيال يضفي على النص الرحلي صفة الأدبية ويتخطى به حاجز المنطق وكل ما هو متوقع . ولقد " تأطرت الرحلة، مثلها مثل النصوص السردية الطويلة التي شكلت الإرث التراثي الممتلئ بالخيال وببصمات الواقع، وبثقافة العين، ووجهات نظر مشتتة حول الآخر، وبإضاءات للأنا الذات والنحن"،[1] فالرحلة كغيرها من النصوص السردية الأخرى مزيج من الواقع و الخيال تنقل لنا تجربة الذات (الأنا النحن)رؤيتها للآخر،وكذا تفاعلها معه بناءً على هذه الرؤية، ولا تخلو التعاريف المختلفة للرحلة من الإشارة إلى بعدها المادي المعرفي وعلاقتها الوطيدة بمختلف العلوم الإنسانية، مما يفسر اختيار بعض الباحثين هذه التسمية بهدف:"فتح نافذة إضافية أخرى على التاريخ ، واعتبار الرحلة مصدرا غميسا، وسجلا إثنوغرافيا يعتبر الرجوع إليه أساسيا في حقل الأنثروبولوجيا ، ومادة جغرافية يجزم الجغرافيون بأن ولادتها كانت من رحم الحقل الجغرافي".[2]

في المقابل يفضل آخرون إطلاق تسمية (أدب الرحلة) على الرحلة بكل أبعادها المادية و الأدبية التي تعتبر الكتابة جزء لا يتجزأ منها، فالحديث عن أدب الرحلة هو:" قصد واضح بانتسابها إلى حقل السرد، باعتبارها كتابة أدبية تتوفر على مكونات سردية و آليات كتابية تسمح للتصنيف أن يأخذ مشروعيته في خانة الأدبي"[3] إلا أنه ينبغي التفريق بين السرد التقريري- الذي يميز، مثلا الأعمال التاريخية- والسرد الأدبي وما يتضمنه من أساليب

---

[1]- شعيب حليفي: الرحلة في الأدب العربي- التجنس آليات الكتابة خطاب المتخيل- مكتبة الأدب المغربي، د ط، 2002، ص 70.

[2]- المرجع نفسه، ص 38.

[3]-المرجع نفسه ، ص ن.

تعبيرية زاخرة بعنصري التخييل والتنميق اللغوي بأشكاله المختلفة، و يقتضي ذلك أن تطغى أدبية النص على حساب مادة رحلية وقعت فعلا في إطار زمكاني معين.

ويذهب آخرون إلى تسمية أدب الرحلة وتعريفها انطلاقا من أحد مقوماتها والذي يدرجها ضمن خانة الأدب ، وهو الوصف ، إذ لا يخلو نص رحلي من هذا العنصر المكون للنصوص الأدبية وخاصة السردية منها، يقول حسين فهيم: " هذا وقد درج الكتاب العرب على استخدام عبارة أدب الرحلات للإشارةإلى كتابات الرحالة المسلمين وغيرهم التي يصفون فيها البلدان والأقوام، والتي يذكرون فيها أحداث تجوالهم، ودوافع رحلاتهم، وما قد يصاحب ذلك من بلورة لانطباعات شخصية أو إصدار أحكام تقويمية لما شاهدوه أو سمعوه"[1]، فقد أشار التعريف إلى خصائص " الكتابة الرحلية" والتي لا تخرج عن وصف للبلدان والأقوام، وسرد الأحداث التي ترافق الرحلة وملابساتها، بالإضافة إلى الانطباعات الشخصية والأحكام التقويمية التي تصاحب ما سبق ، وهي إشارة إلى حضور الجانب الذاتي في الرحلة وأنها ذات منطلقات نفسية تتعلق بالأنا(ذات الكاتب) وعلاقتها بالآخر، فأصحاب الرحلات كانوا حريصين على تقديم وجهات نظرهم ورؤيتهم الخاصة لما شاهدوه أو سمعوه خلال تنقلهم بين البلدان وتجوالهم فيها.

والملاحظ أن كثيرا من التعاريف لأدب الرحلة، بغض النظر عن فضل الأسبقية، تتقاطع مع التعريف السابق، وإن كان هناك اختلاف في الصياغة اللغوية ، فإنها تدور في فلك المفهوم نفسه، وتكاد تتفق في الخصائص العامة لأدب الرحلة، ومن ذلك ما جاء في معجم المصطلحات العربية في اللغة و الأدب لصاحبيه "مجدي وهبه وكامل المهندس"، يقولان عن أدب الرحلات: "مجموعة الآثار الأدبية التي تتناول انطباعات المؤلف

[1]- حسين محمد فهيم: أدب الرحلات، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الأعلى للثقافة والفنون والآداب، الكويت، د ط، 2012.ص 13.

عن رحلاته في بلاد مختلفة، وقد يتعرض فيها لوصف ما يراه من عادات وسلوك وأخلاق ، ولتسجيل دقيق للمناظر الطبيعية التي يشاهدها، أو يسرد مراحل رحلته مرحلة مرحلة ، أو يجمع بين كل هذا في آن واحد."[1]

والملاحظ على التعاريف السابقة أنها فضفاضة وعامة، تفتقد إلى الدقة والتحديد الموضوعي، فمثلا قارئ التعريف السابق قد يتبادر إلى ذهنه أنه يقصد جنسا أدبيا قد يتداخل خطابه مع الخطاب الرحلي كالتحقيق الصحفي مثلا، لذلك نجد الباحث المغربي "محمد الحاتمي" يقترح تعريفا جامعا شاملا لهذا الجنس الأدبي فيقول: "الرحلة خطاب تنشئه ذات مركزية هي ذات الرحالة، تحكي فيه أحداث سفر عاشته، وتصف الأماكن المزورة ، والأشخاص الذين لقيتهم، وما جرى معهم من حديث ، وغايتها من هذا الحكي إفادة القارئ، وامتاعه".[2]فبالإضافة إلى العناصر التي تم ذكرها في التعاريف السابقة لأدب الرحلة والتي تكاد تغيب القارئ تغييبا كاملا، نجد "الحاتمي"يستحضر ه في حديثه عن الغاية من الكتابة الرحلية ملخصا إياها في جانبين هما: إفادة القارئ وإمتاعه، فإذا كانت الإفادة تتحقق بذكر الحقائق والمعلومات الدقيقة عن البلدان والشعوب، فإن الإمتاع يتحقق في ذلك الأسلوب الفني الرفيع الذي يسمو بالكتابة الرحلية وينقلها من عالم الواقع المادي الملموس إلى مرتبة الأدب بكل ما يحمله من قدرة على التخييل والتصوير الفني.

ثانيا- أنواع الرحلات وتصنيفاتها

لقد تبنى النقاد والدارسون مقاربات كثيرة في تصنيف الرحلات العربية القديمة، فتنوعت القراءات والتأويلات بين التصنيف الموضوعي، والتاريخي، والأجناسي وغيرها، وفيما يلي استعراض لأبرز هذه التصنيفات، والتي انطلق

---

[1]- مجدي وهبه وكامل المهندس: معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب مكتبة لبنان، بيروت، ط2، 1984، ص 17.

[2]- محمد الحاتمي: الرحلات المغربية السوسية بين المعرفي والأدبي، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، دط، 2012، ص 30.

أصحابها من رؤيتهم الخاصة للرحلات العربية والخصوصيات التي تتميز بها كل رحلة، بالإضافة ّ إلى التصور الخاص لكل رحالة.

1/ تصنيف بالاعتماد على نسبة الرحلة إلى وسيلة النقل: وقد تبنى هذه الرؤية "شوقي ضيف"، عندما جعل الرحلات الجغرافية هي النواة الكاشفة عن الطريق والدرب والسبيل ليخلص إلى تحديد نوعين من الرحلات هما: الرحلات البحرية والرحلات إلى البلدان والأمم.

أ – الرحلات البحرية: ركب الرحالة العرب البحار رغبة في الاتصال بالشعوب والبلاد الغربية، وكانت هذه الرغبة ممزوجة بحب المغامرة والاستكشاف ومقارعة الأهوال ، واهتمت كتبهم " بالحديث عن البحار التي عرفوها والجزائر والبلدان النائية التي رادوها، وعنى منذ أول الأمر جماعة من الملاحين و الرحالين بحكاية ما شاهدوه في بعض أسفارهم وما اطلعوا عليه من عجائب وغرائب، ودخلت مادة ذلك في عالم القصص "[1]،وقد استعرض شوقي ضيف نماذج من الرحلات البحرية، فذكر رحلة " سليمان التاجر" ورحلة الفتية المغرّبين.".

ب- رحلات في الأمم والبلدان: أو الرحلات البرية والتي تتخذ البر طريق سير للرحلة ، وهي لا تختلف عن الرحلة البحرية في طبيعتها المصبوغة بروح المغامرة وحب الاستكشاف ، فالرحالة العرب:" اقتحموا الأرض المعروفة لهم فجابوا أواسط إفريقية، وتوغلوا في مجاهلها، ووضعوا أقدامهم في أوروبا و مرتفعاتها الشرقية والجنوبية وتوغلوا فيها ، كما توغلوا في آسيا و صحاريها و مرتفعاتها الوسطى ، وطوفوا بالهند و صحراء جوبي ومروج منغوليا إلى الصين"[2]، وقد ساق شوقي ضيف أمثلة عن هذا النوع من الرحلات أمثال "أبي حامد الأندلسي" صاحب كتابي " تحفة الأصحاب ونخبة الإعجاب" و" المعرب في بلاد المغرب".

---

[1]- شوقي ضيف، فنون الأدب العربي الفن القصصي الرحالات، مرجع سابق، ص 28.

[2]-المرجع نفسه،ص 49.

2- **تصنيف تاريخي:**يرتكز هذا التصنيف أساسا على تحديد رحالة كل عصر، ومن أبرز الرحالة الذين تبنوا هذا التصنيف "فؤاد قنديل" وجاء تصنيفه للرحالة العرب كما يلي:

أ- القرن الثالث الهجري: محمد بن موسى، سلام الترجمان، سليمان التاجر، ابن وهب القرشي، اليعقوبي، ابن خرداذبة، ابن رسته، ابن الفقيه.

ب- القرن الرابع الهجري: أبو زيد البلخي، ابن فضلان، الاصطخري، قدامة بن جعفر، رحلة الشبيبة المغررين، المسعودي، ابن حوقل، أبودلف(مسعر بن المهلهل)، المقدسي، المهبلي

ج- القرن الخامس الهجري: البيروني، ابن بطلان، أبو عبيد البكري.

د- القرن السادس الهجري: أبو بكر العربي، الإدريسي، أبو حامد الغرناطي، أسامة بن منقذ، ابن جبير، الهروي.

هـ- القرن السابع الهجري: البغدادي، ياقوت الحموي، ابن سعيد الأندلس، العبدري.

و- القرن الثامن هجري: أبو الفدا، التجاني، ابن بطوطة، ابن خلدون.

والملاحظ على هذا التصنيف والذي قبله، أنه تصنيف عام يفتقد إلى الدقة، ولا يستوعب خصوصية كل رحلة عن الرحلات الأخرى، وخصوصية كل رحالة عن معاصريه.

3- **تصنيف حسب نمط الكتابة:** ويمكن تمييز نوعين من الرحلات: رحلات نثرية ورحلات شعرية ونجد هذا التصنيف مثلا عند "حسين نصار" و"شعيب حليفي" بقول حسين نصار:" وعرف التراث العربي نوعا آخر من

الرحلات الشعرية، فقد عرفت الحياة العربية أسرة اشتغل أفرادها بقيادة السفن، ومهروا في ذلك فعرفوا باسم عالمين، تلك هي أسرة ماجد السّعدي النجدي"[1]

وقد تحدث عن هذا الأخير وعن مصنفه الذي دون فيه تجارب البحرية قائلا: "مصنف ضخم سماه " الأرجوزة الحجازية" وضم أكثر من ألف بيت وصف فيها الملاحة على سواحل البحر في القرن التاسع الهجري، الخامس عشر الميلادي"[2].

بالإضافة إلى الرحلات الشعرية نجد: الرحلات النثرية إذ يقول شعيب حليفي: " أما الرحلات النثرية، فهي الأعم، فإنها تجيء مدونة بأسلوب يغلب عليه الطابع المحدد للرحلة، وتتخذ صفة الرحلة انطلاقا من اعتمادها على مجموعة من المكونات والعناصر، وفق صياغات أدبية وفنية وجمالية، وهذا النوع من الرحلات هو الغالب"[3]، وأمثلة الرحلات النثرية كثيرة جداً، وقد نجدها تتخذ نمطا معينا في الكتابة النثرية مثل الرسالة والتقرير على غرار رحلة ابن فضلان في وفد الخلفية إلى بلاد الترك والروس والصقالبة.

4 - تصنيف حسب أشكال اتجاهات الرحلة إلى المكان المرتحل إليه: ويلخصها " شعيب خليفي" في خمسة أشكال هي:

"- رحلات داخلية في نفس بلد الرحالة.

- رحلات خارجية في المحيط الإسلامي.

- رحلات خارجية في المحيط غير الإسلامي (المسيحي...).

---

[1]- حسين نصار: أدب الرحلة، مكتبة لبنان، الجيزة، مصر، ط 1، 1991، ص 101.

[2]- المرجع نفسه، ص ن.

[3]- شعيب حليفي: الرحلة في الأدب العربي- التجنس، آليات الكتابة، خطاب المتخيل- مرجع سابق، ص 124.

- رحلات استيهامية دنيوية.

- رحلات استيهامية أخروية."[1]

وتعتبر الرحلات الخارجية في المحيط الإسلامي من أكثر أنواع الرحلات شيوعا لارتباطها بالجانب الديني. " ويمكن إدراج النصوص الحجية الزيارية في هذا السياق"[2]

ومن أمثلتها رحلة ابن بطوطة وابن جبير التي كانت أساسا لأداء مناسك الحج.

وفيما يخص الرحلات الاستهامية الدنيوية فهي "النصوص التخييلية التي تنبني ذهنيا، وترسم عالما يوتوبيا بديلا عن الواقع. أما الرحلات الاستهامية الأخروية فهي الشكل الذي تكتب به رحلة تحكي عن عالم الأخرة".[3]

إن هذا التصنيف يحيلنا على تصنيف آخر وهو: تصنيف على أساس مرجعية الرحلة ومدى ارتباطها بالواقع: ونميز في هذا الصدد نوعين من الرحلات: رحلات حقيقية ورحلات خيالية.

- **الرحلة الحقيقية:**وهي رحلة فعلية ذات علاقة مباشرة:"تستند إلى مرجعية ملموسة في الزمان والمكان، وأحداث في الواقع مصبوغة بخصوصيات تشترك فيها، بالإضافة إلى أنها تفرز أنواعا تتحدد انطلاقا من الحافز وجه أحداث النص قبل تدوينها."[4]، إذن فتعدد هذه الأنواع راجع إلى تعدد الدافع (الحافز) إلى الرحلة، ومن هذه الدوافع نذكر[5]:

---

[1]-شعيب حليفي: الرحلة في الأدب العربي- التجنس، آليات الكتابة، خطاب المتخيل- مرجع سابق، ص 125.

[2]-المرجع نفسه، ص 125.

[3]- المرجع نفسه، ص 125.

[4]-المرجع نفسه، ص 120.

[5]- ينظر: فؤاد قنديل:أدب الر حلة في التراث العربي، مرجع سابق، ص 38.

- دوافع دينية: كالارتحال للحج وزيارة الأماكن المقدسة.

- دوافع علمية: بغرض الاستزادة من العلم، فكانوا ينتقلون إلى مناطق من العالم اشتهرت بعلم معين في الطب أو الفقه أو غيرها من العلوم.

- دوافع سياسية: كالوفود والسفارات التي يبعث بها الحكام والملوك إلى نظرائهم من دول أخرى.

- دوافع سياحية وثقافية: ترتبط بذات الرحالة ورغبته في المغامرة وحب التطلع ومعرفة المسالك والممالك ومشاهدة العالم وغرائبه.

- دوافع اقتصادية: ويعتبر من أقدم الدوافع حيث كان الإنسان منذ أقدم العصور ينتقل من مكان إلى مكان بحثا عن مصادر الرزق وللتجارة وتبادل السلع.

- دوافع صحية: كالانتقال من أجل العلاج والاستشفاء، أو هربا من مرض أو وباء يسود المنطقة.

ومن الدوافع السابقة عرفت الرحلات العلمية والحجازية والدبلوماسية وغيرها من الأصناف التي ترتبط بموضوع الرحلة والغرض منها. ومن بين أكثر أنواع الرحلات الحقيقية تداولا و انتشارا نذكر الرحلة الحجازية أو الحجية أو الزيارية المدونة:" صورة عن نشاط إنساني مكثف عرف تناميا لارتباطه بالدين الذي حث على السفر والحج للتطهر من الآثام ، و الشعور بالارتياح لبدء حياة جديدة تكون عتبة للحياة الأخرى ، أو لتزكية الحياة السابقة و تتويجها، والتبرك بالأماكن المقدسة و إتمام فرض ديني وهو حتمية تلزمها الأخلاق والتعاليم الدينية"[1].

ومن الرحلات الحجازية نذكر رحلة " سفرنامة لناصر خسرو علوي، (ق5هـ)تاج المغرق في تحلية علماء المشرق، الخالد بن عيسى البلوي (ق8هـ)، ورحلة علي القلصادي الأندلسي (ق 9هـ).

[1]-شعيب حليفي: الرحلة في الأدب العربي- التجنس، آليات الكتابة، خطاب المتخيل- مرجع سابق، ص 129.

- **الرحلة الخيالية:** رغم أنها رحلة غير واقعية ، إلا أنها: " تتطلب تجربة معيشة على المستوى الواقعي، وأخرى ذهنية تؤسس لعالم متخيل يجنح إلى صوغ أفكار و تأملات معينة تتماشى مع المثالية والعديد من المقولات و التصورات الصوفية و الفلسفية والدينية التي ترسم رحلة النفس في بحثها عن عالم يكون بديلا عن الواقع واليقين و الحقيقة والمعرفة الخالصة للتطهر"[1]، فالرحلة الخيالية هي رحلة استكشافية للذات تنتقل بها عن طرق الحلم أو التخيل من عالم واقعي بكل ما يحمله من سلبيات و تناقضات إلى عالم المثل والتصورات الذهنية؛ خير مثال يمكن أن تمثل به للرحلة الخيالية في التراث العربي هو رسالة الغفران "للمعري".

بالإضافة إلى هذه التصنيفات، والتي نتج عنها عدة أنواع للرحلات، فإن هناك تصنيفات أخرى من قبيل التصنيف الجغرافي وقولهم برحالة المشرق ورحالة المغرب...ويمكن اعتبار السبب الرئيسي في هذا الاختلاف، بالإضافة إلى الأسباب التي سبق ذكرها آنفا، بنية النص الرحلي نفسه، باعتباره نصا مفتوحا على عدة أنواع من الخطاب ومستوعبا لمختلف أشكال التعبير، فهو يمثل شبكة علاقات نصية متداخلة يصعب عزلها أو فصلها.

ثالثا- أهمية الرحلة في التراث العربي:

إن فن الرحلة يتعرض لمختلف نواحي الحياة لذلك، فمن الطبيعي أن نجد الخطاب الرحلي غنيا و متنوعا على مستوى المضمون و الشكل معا؛ فعلى مستوى المضمون يحوي معارف تاريخية وجغرافية و أدبية و إثنوغرافية و دينية و أدبية و غيرها من العلوم و المعارف،وعلى مستوى الأشكال نجد فيه السرد والوصف والرسائل و التراجم و السير والأمثال ومختلف أساليب و أشكال الخطاب، "فالرحالة و هو يطوي الأرض أثناء رحلته يغطي في نفس الوقت ملاحظة مظاهر مختلفة في الحياة يشاهدها أو يسمعها أحيانا و ينقلها في رحلته،و لا شك أن الرحالين يختلفون فيما بينهم في دقة ملاحظتهم و في درجة اهتمامهم و في نوع هذا الاهتمام،كما يختلفون أيضا في درجة صدقهم

[1]—شعيب حليفي :الرحلة في الأدب العربي ،المرجع نفسه، ص 146.

و أمانتهم و في تنوع فهمهم للأمور تحت الظروف المتغايرة التي يخضعون لها، و مع ذلك، فإننا ننظر من هذه الناحية إلى الرحلات كمبلوأ ككل مهما كان بينها من اختلاف و تنوع في الاتجاه و التقدير، و من هنا كان للرحلات قيمتان عظيمتان: قيمة علمية، و أخرى أدبية"[1].

1. **القيمة العلمية:** و تكمن هذه القيمة فيما تحويه هذه الرحلات من مختلف العلوم و المعارف التي دونها الرحالة من خلال اتصاله المباشر بالناس و الطبيعة، فهو" يمثل دور الناقل لهذه الظاهرات"[2]، و من أبرز العلوم المتصلة بالرحلات نذكر:

أ. **التاريخ:** "و لأن التاريخ يحضر في الماضي أو يؤسس له فهو يقف بالأساس على السند سواء المتعين المشهور أو المجهول. أو بدون سند و هي المرجعيات التي تؤطر الخبر في المؤلفات التاريخية"[3]، فالمؤرخ يعتمد أساسا على السند أو ما نسميه وثيقة تاريخية- سواء أكانت مادية أم معنوية- و عمله ينحصر في نقل هذه الوثيقة و إخراجها إلى النور، يرجع إليها أثناء سرده للخبر التاريخي، و لتكون خير دليل على مصداقيته، و في المقابل "تتضمن جل النصوص الرحلية بنيات كاملة يؤرخ فيها المرتحل للفترة التاريخية التي استغرقتها رحلته فضلا عن الأحداث التي عاصرها من منظور يعتمد المعاينة و القراءة و التأويل"[4]. إن الرحلة بهذا المفهوم تقدم خدمة جليلة للتاريخ، فهي لا تكتفي بنقل أحداث تاريخية وتدوينها لتصير وثيقة في يد المؤرخ، بلتتعدى ذلك إلى القراءة و التأويل الذي يشمل مختلف جوانب الحدث التاريخي و كل الظروف المحيطة به، و من أمثلة تداخل الخطاب التاريخي مع الخطاب الرحلي تذكر "عواطف محمد يوسف نواب" بعض الأحداث التي رافقت إقامة ابن جبير بمكة المكرمة أثناء تأديته فريضة الحج، و التي أرخ لها في رحلته فتقول: " و للدلالة على التزام أمير مكة المكرمة بالولاء و الطاعة

---

[1]- حسني محمود حسين: أدب الرحلة عند العرب،دارالأندلس، ط2، د ب، 1983، ص6

[2]- المرجع نفسه، ص7.

[3]-شعيب حليفي: الرحلة في الأدب العربي- التجنس، آليات الكتابة، خطاب المتخيل- مرجع سابق، ص 21.

[4]- المرجع نفسه، ص58.

لصلاح الدين تنفيذه لأوامره التي تصله بواسطة الرسائل حيث وصلت إحداها أثناء وجود "ابن جبير" بمكة وأشار إلى مضمون الكتاب، وهو التوصية بالحجاّ ج و حمايتهم من العابثين" [1]و تضيف قائلة:" و قد أشارت جميع المصادر تلك الفترة إلى نص الخطاب هذا و ما تضمن من العمل على رفع الضرائب و المكوس عن الحجاج و تعويض أمير مكة المكرمة عنها."[2]

فالرحالة العربي لم يقف موقف المتفرج من الأحداث الدائرة حوله، بل كان متفاعلا معها واتخذ موقفا إيجابيا تجاههها، وبذلك ساهم في إعطاء قيمة تاريخية عظيمة لفن الرحلة جعلته قبلة الباحثين في تاريخ الشعوب والبلدان.

ب. **الجغرافيا:** استعمل كثير من الباحثين و الدارسين مصطلح الأدب الجغرافي بدلا من أدب الرحلة و هذا إن دل على شيء، فإنما يدل على مدى الارتباط الموجود بين علم الجغرافيا و أدب الرحلة، و أن أهم عنصر مشترك بينهما هو الترحال والتنقل في المكان طولا و عرضا، " فإن كان علم الجغرافيا مثلا يدرس ظاهرات سطح الأرض الطبيعية و البشرية، ويقوم منهجه في ذلك على تسجيل هذه الظاهرات و تفسيرها و توزيعها على سطح الأرض، فإن الرحالة و هو يدو ن مشاهدته الجغرافية على سطح الأرض،إنما يعمل في خدمة هذا العلم من هذه الناحية على الأقل إذا لم يتجاوزها إلى الخطوة التالية لها في منهجه"[3] ،فقد انطلق الرحالة العرب من معاينتهم لمختلف الأقطار و الأمصار و المسالك ،و من خلال تلك المشاهدات وصفوا مختلف مظاهر السطح و توزيع السكان و أنواع المناخ و تقلبات الطقس و غيرها من المواضيع التي يهتم بها علم الجغرافيا، و هم بهذا قدموا خدمات جليلة في دراسة أحوال

---

[1]- عواطف محمد يوسف نواب: الرحلات المغربيةوالأندلسية، مصدر من مصادر تاريخ الحجاز في القرنين السابع والثامن الهجريين، دراسة تحليلية مقارنة- الرياض، السعودية د ط، 1996م،ص147.

[2].المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

[3]- حسني محمود حسين، أدب عند العرب، مرجع سابق ،ص7.

البلاد العربيةو الإسلامية من الناحية الجغرافية ،"و لم تقتصر إفادتهم في ميدانهم هذا على البلاد الإسلامية وحدها، و إنما تعدوها في رحلاتهمو أخبارهم إلى بلاد أجنبية أخرى في أسياو افريقياو في أروبا فيما بعد، و لما يكن و صلها

الإسلام فأمدونا عنها بمعلومات من الدرجة الأولى، خصوصا إذا قورنت هذه المعلومات بما كان يعرفه العالم عنها في العصور الوسطى حتى الكشوف الجغرافية المتأخرة لدى الأو ربيين"[1]. فقد ساهم رحالة العرب بوضع الأسس الأولى لعلم الجغرافيا عن طريق المنهج الذي اتخذوه في تدوين مشاهدتهم، بالإضافة إلى المعلومات الوفيرة التي استطاعوا جمعها عن مختلف الأقاليمو البلدان التي زاروها و عايشوا أهلها. " وفي أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم أفاض المقدسي في ذكر المسافات و طرق المواصلات و اللغات واللهجات، و المكاييل و الأوزان و المناخ، و الزراعة و طواف الناس و غذائهم و شرابهم، و أخلاقهم و عاداتهم، و مذاهبهم و معاملتهم التجارية"[2] الكثير من الرحالة العرب ضمنوا رحلاتهم معارف جغرافية مثل: "اليعقوبي"، "الاصطخري"، "الغرناطي"، "ابن خرداذبة"، "ابن حوقل"، "أبو الفداء"، "ابن بطوطة"، و غيرهم من الرحالين الجغرافيين.

ج. **الإثنوغرافيا:** يرى كثير من دارسي أدب الرحلات و الإثنوغرافيا بوجه خاص أن هناك صلة وثيقة بينهما، فالإثنو غرافيا كما يعرفها حسين محمد فهيم "كلمة معربة تعني الدراسة الوصفية لأسلوب الحياة و مجموعة التقاليد، و العادات و القيمو الأدوات و الفنون والمأثورات الشعبية لدى جماعة معينة أو مجتمع معين، خلال فترة زمنية محددة"[3]. و من هذا التعريف يمكن تحديد الصلة بين أدب الرحلةو الإثنوغرافيا و تشمل جانبين: الأول يخص منهج الدراسة و الذي يعتمد على الوصف من خلال المعاينة، و الثاني هو موضوع الدراسة و الذي يصور الجانب الثقافي للآخر، بكل أبعاده الماديةو المعنوية. و يمكن لقارئ نصوص أدب الرحلات الوقوف على ما تزخر به هذه النصوص

---

[1]- حسني محمود حسين ، أدب الرحلة عند العرب مرجع سابق، ص8

[2]- جمال الدين فالح الكيلاني: الرحلات والرحالة في التاريخ الإسلامي-دراسة تاريخية- دار الزنيقة، القاهرة مصر،د.ط، د.ت، ص21.

[3]- حسين محمد فهيم: أدب الرحلات، مرجع سابق، ص43،44.

من مضمون إثنوغرافي متنوع من ناحية الموضوع و الزمان و المكان، حيث تتنوع هذه المادة بين وصف الأقاليم و طبائع الناس و عاداتهم و معتقداتهم الدينية، و غيرها من مظاهر التنوع الثقافي بين البشر.

لقد سلك الرحالة العرب منهج الإثنوغرافيين في طريقة جمعهم و تدوينهم مادتهم الرحلية، و هوما أشار إليه "حسين محمد فهيم" في كتابه "أدب الرحلات" في حديثه عن المقدسي بقوله: "و جدنا في مؤلفه (أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم) من مزج بين الرحلة و الإثنوغرافيا، علاوة على ما فيه من تفاعل في شخصية هذا الرحالة بين الحس الإثنوجرافي و النزعة الأدبية في عرض المعلومات بطريقة سلسلة وشيقة، هذا بالإضافة إلى جمال الوصف و حسن التعبير... و وجدنا فيه مثالا طيبا جمع فيه هذا الرحالة بين أساسيات موضوع الاثنولوجيا و منهجها"[1].

وقد نجد العديد من كتابات الرحالة كتابات إثنوغرافية كما هو الحال عند المقدسي وغيره كثير ممن ساهم برحلاته في إثراء حقل الدراسات الإثنوغرافية. ومن أبرز هؤلاء نذكر "البيروني" في كتابه تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة، في وصفه لعقيدة الهنود، إذ يقول: "كانوا يرون في الأنفس و الأرواح أنها قائمة بذواتها قبل التجسيد بالأبدان معدودة مجندة تتعارف و تتناكر أنها تكتسب في الأجساد بالجَوْرة ما يحصل لها به بعد مفارقة الأبدان الاقتدار على تصاريف العالم و لذلك سموها "آلهة" و بنوا الهياكل بأسمائها وقربوا القرابين لها"[2].

ف"البيروني"-و عن طريق المعاينة -لا يكتفي بتصوير مشاهدته لمعتقدات الهنود حول تعدد الآلهة و يذهب أبعد من ذلك حينما يفسر لنا سبب هذا التعدد حسب المعتقدات الهندية، فيقدم لنا قراءة إثنوغرافية خالصة. فالرحلة إذن ليست وسيلة فقط في يد الإثنوغرافي لوصف ثقافة الغير بل هي متطلب أساسي للدراسة الإثنوغرافية.

---

[1]- حسين محمد فهيم :أدب الرحلات ،المرجع السابق ، ص46.

[2]-أبو الريحان محمد بن أحمد البيروني: كتاب في تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة أو مرذولة، دائرة المعرف العثمانية، حيدر أباد انتهرابردلش، الهند،د ط، 1957 ،ص25.

فخطاب الرحلة إذن على مستوى المضامين يحتوي على معارف متنوعة، تاريخية جغرافية،و إثنوغرافية،و حتى دينية و أدبية، أما على مستوى الشكل فإنه لا يخلو من السرد و الوصف و الكتابات و الأخبار و الرسائل و الأشعار... حيث تتجلى قيمته الأدبية.

2. **القيمة الأدبية:** أصبحت الرحلة تستقطب رواد الأدب و النقد، واستطاعت أن تلفت أقلامهم بالدرس و التحليل، و تتجلى قيمتها الأدبية "في ما تعرض فيه موادها من أساليب ترتفع بها إلى عالم الأدب، و ترقى بها إلى مستوى الخيال الفني"[1]فالنص الرحلي بالإضافة إلى ثرائه المعرفي يملك ثراء فنيا أدبيا من خلال ذلك الزخم من الأساليب التعبيرية المتنوعة" و بخاصة عندما يحتفل الكاتب بالأساطير و الخرافات و بعض المحسنات البلاغية، و جمال اللفظ، و حسن التعبير، و ارتقاء الوصف، و بلوغه حدا كبيرا من الدقة، علاوة على ما قد يستعين به -أحيانا- من أسلوب قصصي، سلس، مشرق"[2].

إن طبيعة الرحلة القائمة أساسا على سرد أحداث و وصف مشاهدات، جعل أسلوبها يرتقي في أحيان كثيرة إلى أسلوب الفنون الأدبية المعروفة حديثا مثل الرواية، و القصة. ما يجعل بعض الباحثين يشيرون إلى دور الرحلة في نشأة هذه الفنون و تطورها بقول المستشرق الروسي "إغناطيوس كراتشوفسكي" في حديثه عن قيمة هذا النوع الأدبي: "و هو يقدم متعة ذهنية كبرى إذ نلتقي فيها بنماذج أدبية فنية رائعة، صيغت بالسجع أحيانا و المصنفات الموضوعية من أجل جمهرة القراء يتراوح فيها العرض بين الجفاف و الصرامة من جهة، و الإمتاع و الحيوية من جهة أخرى، و هنا تبدو مقدرة العرب الفائقة و براعتهم في فن القصص"[3]، و هو اعتراف صريح بوجود جذور للفن

---

[1]- حسني محمود حسين: أدب عند العرب، مرجع سابق،ص8.

[2]- سيد حامد النساج: مشوار كتب الرحلة- قديما وحديثا- مكتبة غريب القاهرة، مصر، د ط ، د.ت ،ص8

[3]- إغناطيوس يوليانوفتش كراتشكو فسكي: تاريخ الأدب الجغرافي، ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم لجنة التأليف والترجمة والنشر ،القاهرة ، د. ط 1963، ج1، ص25.

القصصي في أدب الرحلة، و هذا ما يؤكده "شوقي ضيف" بقوله: "و لا نبالغ إذا قلنا إن الرحلات من أهم فنون الأدب العربي، لسبب بسيط هو أنها خير رد على التهمة التي طالما اتهم بها هذا الأدب، و نقصد تهمة قصوره في فن القصة"[1]، و من الدراسات التي أشارت إلى الجانب القصصي في الرحلات دراسة الكاتبة "نوال الشوابكة"في كتابها المعنون "أدب الرحلات الأندلسية و المغربية"، حيث و في معرض حديثها عن دور السرد و الوصف و الحوار و أحيانا الشعر في تشكيل نواة الفن القصصي للرحلة تقول ممثلة برحلة ابن عربي:" تتضمن سردا يحوي سمات الشكل الأدبي القصصي، فالشخصيات و الحوارات موجودة، إضافة إلى احتوائها نصوصا شعرية و من ذلك الحوار الذي جرى بين ابن عربي-السالك- والفتى الروحاني عصام، و هي شخصية سردية قال السالك": فلقيت فتى روحاني الذات، رباني الصفات، يومئ إلى الالتفات، فقلت: ما وراءك يا عصام؟ قال: وجود ليس له انصرامقلت له: فأين تريد؟ قال حيث لا أريد..."[2]و من عناصر القصة التي تضمنها النص السابق السرد و الحوار. و تضيق قائلة:" إن ذلك كله يسهم في الحفاظ على القيمة القصصية في الرحلات، فالسرد ينطلق من الواقع مكانا و زمانا و أشخاصا، و يسهم في بناء عالم قوامه الدوال الخاصة بكل رحالة، و يتنوع بين سرد المغامرات و سرد الانطباعات"[3].فنص الرحلة بما يشمل عليه من سرد و حوار و وصف و غيرها من عناصر الفن القصصي يمكن اعتباره من الجذور الفعلية لهذا الفن بشكليه المعروفين القصة و الرواية، فبعض الرحالة "يميلون إلى السرد القصصي، باعتبار أن الرحلة حكاية لها بداية و وسط و نهاية. كما يستخدمون الوصف أحيانا حين ينفعلون إزاء موقف معين. أما أفضل ميزاتهم فتتمثل في الاستخدام الذكي للحوار الكاشف الدال"[4]، و من أبرز كتاب الرحلة الذين تبرز

---

[1]- شوقي ضيف، فنون الأدب العربي، الفن القصصي، الرحلات ، مرجع سابق ،ص 6

[2]- نوال عبد الرحمان الشوابكة: أدب الرحلات الأندلسية والمغربية حتى نهاية القرن التاسع الهجري، دار المأمون للنشر والتوزيع، عمان، المملكة الهاشمية الأردنية،دط،2008 ،ص304.

[3]- المرجع نفسه، ص 304.

[4]- ناصر عبد الرازق الموافي: الرحلة في الأدب العربي—حتى نهاية القرن الرابع الهجري —دار الوفاء للطباعة والنشر ، المنصورة ،ط1، 1995 ص16.

في كتاباتهم أسلوب الكتابة القصصية، نذكر:"ابن بطوطة"، "ابن جبير"، "المقدسي" و"ابن فضلان". "وعلى أية حال فإن الرحلة الأدبية إن لم تكن قصةو لا رواية بالمعنى الدقيق فهي أخت شقيقة لهما"[1].

كما تتجلى القيمة الأدبية في كون كثير مما دونه الرحالون العرب مما شاهدوه، يمكن أن يعتبر من أرقى نماذج الوصف الفني الحي الذي لم يكن شائعا قديماو حتى في عصرنا الحالي"وهو الانصراف عن اللهو والعبث اللفظيو الطلاء السطحي،و الإيثار للتعبير السهل المستقيم الناضج بغنى التجربة وصدق اللهجة الشخصية[2].

و هو ما نطلق عليه في الكتابات العربية الأسلوب السهل الممتنع لأن "أسلوب الكتب المنتمية لأدب الرحلات، كان أسلوبا خاصا، بحيث لم يتفق مع الأسلوب السائد في عصره، فينما كان استخدام المحسنات البديعية على أشده في القرن الرابع الهجري- على سبيل المثال- فإن لجوء أصحاب كتب أدب الرحلة إليه كان ناذرا، بل إنهم عملوا على تجاوزه واستخدام ما كان سهلا ممتنعا"[3]، فبظهور أدب الرحلة ظهر أسلوب جديد في الكتابة يناقض ما كان منتشرا، خاصة مع ازدهار فن المقامةو الخطابةو الرسالة وغيرها من الفنون النثرية التي تعتمد أسلوب التنميق اللغويو الزخرف الفني ما يدخلها في أحيان كثيرة دائرة التكلف.

و أحيانا يلجأ الرحالة إلى الاستشهاد بأبيات شعرية تبرز أدبيته ومقدرته الشعرية والنثرية معا، وهو حين يستعين بالشعر إنما يعبر من خلاله عما يختلج في نفسه من مشاعر حركتها مشاهدته وملاحظاتهو كثيرا ما يسيطر على الرحلة الجانب الذاتي فتجده يعبر عن أحاسيسه ومشاعره فينقلها في صورة "ممتعةو أخبار تلذو تمنع وتستعرض بصورة أدبية، تتسق مع النفس البشرية فتشكل رافدا ثرا من روافد الفنو المتعة الأدبية"[4].

---

[1].حسين نصار، أدب الرحلة، مرجع سابق، ص132.

[2]- أحمد أبو سعد، أدب الرحلات وتطوره في الأدب العربي: منشورات دار الشرق الجديد، بيروت، ط1،1962 ، ص5.

[3]- ناصر عبد الرزاق الموافي: الرحلة في الأدب العربي- حتى نهاية القرن الرابع هجري- مرجع سابق، ص16.

[4]- نوال عبد الرحمن الشوابكة: أدب الرحلة الأندلسية والمغربية حتى نهاية القرن التاسع الهجري، مرجع سابق، ص53

وقد يلجأ الرحالة أحيانا إلى طابع السخرية والفكاهة بغية إضفاء لمسة خاصة لها تأثير إيجابي على المتلقي أو يكون حينئذ أبلغ في الوصول إلى الأثر المرجو، وقد يبلغ هذا الطابع الفكاهي ذروته، فيسم رحلات بعينها بميسمه، أو يصبغ أجزاء منها بصبغه، ولعل الفصل الخاص بـ"صقلية" في كتاب ابن حوقل – من أروع ما كتب الرحالة في هذا المجال"[1].

و إلى جانب حضور السخرية والفكاهة نجد أن الأسطورة هي الأخرى لها حضور مميز في الرحلة،" ولعل استخدام بعض الرحالة لخيالهم ومزجهم الحقيقة بالأسطورة جاء استجابة لروح المغامرة، الأمر الذي ساعد في إدراك الأشياء، وتطور الفن القصصي للرحلة"[2] فالخيال يضفي على النص الرحلي نوعا من الحياة، ويصبغه بطابع الخلود والتجدد. ونجد حضور الأسطورة في الكثير من الرحلات العربية على غرار العزناطي والمسعودي وابن بطوطة...

و على هذا الأساس يمكن القول:إن أدب الرحلة يحمل قيمتين أساسيتين علمية وأدبية ، لأن الرحالة إنما ينطلق من واقع معاش يصور فيه مشاهدته وانطباعاته الشخصية بأسلوب خاص، يحتوي فيه الدقة في التصوير تارة، ويجنح به إلى عالم الخيال تارة أخرى، فتراه يختار أسلوبه بما يناسب تفاصيل رحلته لتكون مزيجا من كل ما سبق،" فأدب الرحلة ليس وصفا في التاريخ ولا وصفا جغرافيا.. كما أنه ليس قصة قصيرة أو رواية أو قصيدة شعر، وإنما هو هذا وذاك، ومن ثم يكتسب خصائصه المتميزة وطعمه العذب ... وقدرته في الوقت نفسه على تلبية مطالب المؤرخين والجغرافيين والأدباء الذين يطمحون لمعاينة الوقائع، وسبر غورها العميق"[3] وربما هذا ما يميز

---

[1]- ناصر عبد الرازق الموافي: الرحلة في الأدب العربي حتى نهاية القرن الرابع، مرجع سابق، ص58.

[2]- نوال عبد الرحمن الشوابكة: أدب الرحلة الأندلسية والمغربية حتى نهاية القرن التاسع الهجري، مرجع سابق، ص311.

[3]- عماد الدين خليل: من أدب الرحلات، دار ابن كثير، ط1،2005، ص6.

أدب الرحلة عن غيره من الأنواع، ما يؤكد الطابع الخاص لهذا الجنس الهجين الذي فرض وجوده في مختلف العلوم والفنون الأدبية.

الفصل الأول

شعرية الوصف في أدب الرحلة العربي القديم

أولا - حول مفهوم الشعرية:

يعتبر مصطلح الشعرية من أكثر المصطلحات شيوعا في مجال الدراسات الأدبية والنقدية الحديثة والمعاصرة خاصة منذ بداية القرن العشرين، وإن كان أصله يعود إلى أبعد من ذلك، إذ ينسب إلىالفلاسفة الإغريق، و كذلك العرب القدامى؛ إذ كان الشعر ديوانهم ومظهرا سائدا عندهم لما له من مكانة مرموقة في نفس العربي فهو مبلغ حكمتهم والحافظ لتاريخهم وأنسابهم.

و بحديثنا عن الشعرية فهي كلمة مشتقة من الشعر، وهذا حتما سيقودنا إلى المعاجم اللغوية التي تعد كنزا لا يمكن الاستغناء عنه، فلا يمكن لأي باحث إرساء دعائم دراسته إلا بالعودة إليها وهذا ما سنتبعه في هذه الدراسة، من خلال تبيان مفهوم الشعر في المعاجم اللغة وكذا في متون الكتب التي عنيت بهذا المصطلح.

1 - لغة:

ورد الشعر في معجم " لسان العرب" من "شعَر به شعرُ يشعرُ شعرا وشعرًا وشعرةً ومشعورة وشُعورا وشَعَرَه كلِه: "[1]

وأيضا: "يقال شعَرَ فلان وشعرُ يشعرُ شعرا وسمي شاعرًا لفطنته وما كان شاعرا، ولقد شعرُ بالضم وهو يشعُر، والمتشاعر الذي يتعاطى الشعر"[2]

فقائل الشعر وجب أن يكون فطنا والشعر هو ما شعر به الإنسان ونظمه بكلام موزون ومقفى.

وقد وردت كلمة الشعر أيضا في معجم " مقاييس اللغة" " لابن فارس":" الشين والعين والراء أصلان

---

[1]- محمد بن مكرم بن منظور: لسان العرب، دار المعارف، مرجع سابق، مادة (شعر)،ص2273.

[2]- المرجع نفسه، ص 2274.

معروفان يدل أحدهما على ثبات والآخر على عِلْمٍ وعَلَمٍ (...)شعَرت بالشيء، إذا علمته وفطنت له(...) قالوا: سمي ّ الشّاعر لأنّه يفطن لما لايفطنه غيره"[1]

كما ورد في معجم الوسيط: "كلام موزون مقفى قصدا(...)قول مؤلف من أمور تخيلية، يقصد به الترغيب أو التنفير كقولهم الخمر ياقوتة سيّالة، و العسل قئ النحل"[2].

فالمتصفح لهذه التعريفات يجد أن الشعر هو ذلك الكلام الموزون المقفى الذي يعبر ّ عن أحاسيس قائله بكلمات بليغة.

2- اصطلاحا:

وحتى ّ يتسنى لنا البحث عن مفهوم الشعرية، لابد من إلقاء الضوء على مفهوم الشعر، الذي انبثقت عنه هذه النظرية الحديثة التي شغلت أبحاث الشكلانيين الروس، فلمفهوم الشعر تاريخ بعيد الأمد يعود إلى عهد الفلاسفة الإغريق أمثال أفلاطون وأرسطو، حيث ورد في كتاب " فن الشعر" لأرسطو، على أنه: "محاكاة تتسم بوسائل ثلاث، قد تجتمع وقد تنفرد، وهي: الإيقاع والانسجام واللغة"[3]

فالشعر عند أرسطو هو محاكاة، والمحاكاة الأرسطية لا تعني تصوير الواقع بحذافيره تصويرا فوتوغرافيا إنّ الشاعر الحقيقي عند أرسطو هو الذي يراعي هذه الجوانب الثلاث: الإيقاع الموسيقي، وكذلك الانسجام بين

---

[1]- أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا: مقاييس اللغة، تح: السّلام محمّد بن هارون، دار الفكر للطباعة والنشر، د-ب، دط، ج3، مادة (شعر)،ص 193، 194.

[2]- إبراهيم أنيس وآخرون: المعجم الوسيط، القاهرة، مكتبة الشروق الدولية، ط1، دت، ص 484.

[3]- خولة بن مبروك: الشعرية بين تعدد المصطلح واضطراب المفهوم، مجلة المخبر، أبحاث في اللغة والأدب الجزائري، جامعة بسكرة، الجزائر، العدد 9، 2013، ص 336.

الكلمات والمصطلحات وأيضا اللغة التي يجب أن تكون مفهومة هادفة تصل إلى أعماق المتلقي لتبعث فيه إحساسات الشاعر.

أما إذا عدنا إلى تراثنا القديم فنجد هناك الكثير من النقاد الذين تحدثوا عن الشعر أمثال "ابن سلام الجمحي""وقدامة بن جعفر" و"الجاحظ" و"أبو هلال العسكري"، واعتبروه صناعة، وإن "لمفهوم الصناعة عندهم مدلولا خاصا تمثل في المهارة وحسن التفنن"[1] وهذا ما أشار إليه أرسطو قبل قرون.

و الأمر نفسه عند "ابن سلام الجمحي"يظهر ذلك جليّا في قوله: "الشعر صناعة وثقافة يعرفها أهل العلم كسائر أصناف العلم والصناعات"[2]

إذن فعلى الرغم من عدم وجود نظرية متكاملة ناضجة يتحدد من خلالها مفهوم الشعرية ،إلا أننا لا ننكر وجودها في التراث العربي القديم بتسميات متعددة كالصناعة والنظم والتخييل وعمود الشعر.

كما لا يمكننا أن ننكر جهود النقاد القدامى، فقد كانت مرجعا أساسيا للنقاد المحدثين الذين أخذوها بالدرس والتحليل ، محاولين استنباط قواعد الشعرية مصنفين إياها علما قائماً بذاته.

أما بالنسبة لمصطلح الشعرية فهو لم يتداول في التراث النقدي القديم ؛ سواء عند الفلاسفة اليونان أمثال "أفلاطون"،الذي حاول أن يفسر الشعر من خلال فلسفته المثالية، أو عند تلميذه "أرسطو" في كتابه " فن الشعر" عندما تحدث عن أقسام الشعر وقال بأنها تأتي " وفقا لطباع الشعراء: فذووا النفوس النبيلة حاكوا الأفعال النبيلة وأعمال الفضلاء، وذووا النفوس الخسيسة حاكوا أفعال الأدنياء فأنشئوا الأهاجي بينما أنشأ الآخرون الأناشيد

---

[1]-خولة بن مبروك: الشعرية بين تعدد المصطلح واضطراب المفهوم، مرجع سابق، ص 267.

[2]محمّد بن سلام الجمحي: طبقات فحول للشعراء، ط 1، تح: أحمد إبراهيم، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط 1، 1982م، ص 05.

والمدائح"[1]، فالشعراء حسب أرسطو هم مرآة المجتمع وتصوير ومحاكاة لطباع البشر، ومن هذه النظرية والرؤية الأرسطية جاء "حازم القرطاجني" في القرن السابع الهجري ليقول:" ..وكذلك ظن هذا أنّ الشعرية في الشعر إنمّا هي نظم أي لفظ كيف اتفق نظمه وتنظيمه أي غرض اتفق على أي صفة"[2]فالشعرية حسب "حازم القرطاجني" مزج بين نظرية النظم التي جاء بها " عبد القاهر الجرجاني" في كتابه " دلائل الإعجاز" وبين ما قال الفيلسوف اليوناني "أرسطو"على أنهّا محاكاة لأفعال البشر، فهي رؤية الشاعر لما يتلخص في واقعه.

وللشعرية مفاهيم متعددة لدى النقاد المحدثين ،ويشير إليها " حسين ناظم" بقوله: "إنّ لفظة الشعرية قد شاعت وأثبتت صلاحيتها في كثير من كب النقد فضلا عن الكتب المترجمة إلى العربية"[3] ، فيظهر جليا على أن ّ كلمة الشعرية قد استعملت مصطلحات موازية في متون الكتب القديمة للدلالة عليها.

بالإضافة إلى ما جاء في تعريف "أدو نيس" في كتابه" الشعرية العربية"حيث قال إنّ :"سرّ ّ الشعرية هو أن تضل دائماً كلاماً ضد الكلام لكي تقدر أن تسمي العالم و أشياءه أسماء جديدة"[4] ، فهي حسبه بلورة أخرى لمسميات النقاد الغربيين أمثال " تزفيطان تودوروف" الذي يعد في طليعة النقاد الذين عنوا بشكل خاص بالتأطير والتأصيل لهذا النوع الجديد من النقد في الستينيات، حيث لا يكاد يخلو مؤلف من مؤلفاته إلاّ ووظّف فيه مصطلح الشعرية، ونخص بالذكر كتابيه المترجمين إلى اللغة العربية والموسومين " بالشعرية" و" شعرية النثر" اللذان يهتمان بشعرية أرسطو و التي تعتبر اللبنة الأولى ،ونستشف ذلك من خلال قوله: "إنّ مؤلف أرسطو في الشعرية

---

[1]- حسن ناظم:مفاهيم الشعرية -دراسة مقارنة في الأصول والمنهج- المركز الثقافي العربي،بيروت، لبنان، ط1، 1994، ص20.

[2]- المرجع نفسه، ص21.

[3]- المرجع نفسه ، ص 16.17.

[4]- أدونيس: الشعرية العربية، دار الآداب، بيروت، ط2، 1989، ص 78.

الذي تقادم بنحو ألف و خمسمئة سنة هو أول كتاب خصص بكامله لنظرية الأدب"[1]، فهو يشيد بأن كتاب أرسطو " فن الشعر"اكتمال ونضج للشعرية، كما ورد أيضا في كتابه: أنّ العمل الأدبي في حدّ ذاته هو موضوع الشعر ية ، فيما تستنطقه من خصائص هذا الخطاب النوعي الذي هو الخطاب الأدبي"[2] ، إذ أن الموضوع الشعرية هو دراسة العمل الأدبي سواء أكان شعرا أو نثرا و استنطاق لخصائصه.

كما ذهب "رومان جاكسون" بشأن تعريف الشعرية في كتابه "قضايا الشعرية" و" الوظيفة الشعرية" و"مفهوم الشعرية" إلى القول: "إنّ محتوى مفهوم الشعر غير ثابت و هو متغير مع الزّمن "[3] ؛ فالشعر حسبه ليس له مفهوم محدد وإنما يتغير بتغير الزمن و الأحداث .

ويقول أيضا: " إن محتوى الشعرية أي الشاعرية هي كما عند الشكلانيين الروس عنصر فريد ،عنصر لا يمكن اختزاله بشكل ميكانيكي إلى عناصر أخرى عنصرا ينبغي تعريته و الكشف عن استقلاليته"[4]أي أن الشعرية أو الشاعرية كما سماها هي عنصر لا يمكن ربطه بغيره من العناصر.

يبقى مفهوم الشعرية مختلفا باختلاف قائليه ، إلا أنه يتلخص في كونه نظرية أدبية تعنى بالعمل الأدبي سواء أكان شعرا أو نثرا ؛فهي تلخيص لما يقوله الشاعر أو الأديب وتعبير عن الواقع بمصطلحات جديدة.

ويلخص ذلك " حسن ناظم "بقوله :" الشعرية هي محاولة وضع نظرية عامة و مجردة و محايثة للأدب بوصفه فنا لفظيا، إنما تستنبط القوانين التي يتوجه الخطاب اللغوي بموجبها وجهة أدبية، فهي إذن تشخص قو انين الأدبية

---

[1]-خولة بن مبروك: الشعرية بين تعدد المصطلح واضطراب المفهوم، نرجع سابق، ص 386.

[2]- المرجع نفسه، ص 368.

[3]- المرجع نفسه، ص 396.

[4]- المرجع نفسه، ص 369.

في أي خطاب لغوي، و بغض النظر عن اختلاف اللغات"[1] فهدف الشعرية هو تزويد الخطاب النقدي بمعايير و قوانين تضبط الخطاب الأدبي و تميزه و تجعله مختلفا عن باقي الخطابات كما أنها تستخدم لغة مميزة في التفسير و التصوير و المحاكاة.

وقد أشار "عبد الله الغامدي" إلى مصطلح الشاعرية كبديل للشعرية حتى تتوسع دائرة المصطلح ولا تبقى مرتبطة بمصطلح الشعر فقط وإنما تتعداه إلى النثر شاملة لمصطلحي الأدبية والأسلوبية، فالشاعري لا يتلخص في قول الشاعر أي الكلام المنظوم بل في تعبيرات بليغة من خيال وعاطفة متلخصة في الشعر أو النثر معا.

ثانيا: أصول الشعرية:

إن المتتبع لمفهوم الشعرية ، يجد أن أصولها تعود إلى الحقبة اليونانية ومع الفلاسفة الإغريق أمثال "أفلاطون" و"أرسطو"، وبما أن البلاغة روح الشعر فإن العرب أيضا عنوا بهذا المصطلح بما أنّ الشعر ديوانهم والحافظ لعاداتهم وتقاليدهم ومن بينهم "عبد القادر الجرجاني" في كتابه "نظرية النظم" و"القاضي الجرجاني" في كتابه "عمود الشعر"، و الحديث عن الشعرية لا يستقيم إلا بالعودة إلى أصولها الأولى مرورا بتطورها و حتى و صولها إلينا كنظرية متكاملة من خلال الشكلانية الروسية، و ليتسنى لنا الحديث عن الشعرية ، وجب أن نقف أولا على الشعرية الغربية بما أنها اللبنة الأولى وصولا إلى الشعرية العربية.

[1]-حسن ناظم: مفاهيم الشعرية - دراسة مقارنة في الأصول والمنهج- ص23.

1 - الشعرية عند الغرب

تعود الأصول الأولى لكلمة " الشعرية" في منبتها الغربي تعود إلى الفكر الأرسطي، فهي بديل للمصطلح الفرنسي poétique أو الإنجليزية poetics وكلاهما منحدر من الكلمة اللاتينية poetica المشتقة من الكلمة الإغريقية poiéthkees[1] أي كل ما هو مبتدع ومبتذل .

ولعل ما تطرق إليه "أرسطو" منذ قرون خلت في كتابه " فن الشعر"يعتبر مرجعاً مهماً للدارسين، وللمادة الخام التي انطلقت منها الشعرية الغربية والعربية معا، إذ أن شعريته هي تظافر لعناصر تتكون ضمن معيار كلي، تتكامل فيها كل الوحدات لتشكل نظرية قائمة بذاتها، ومن أهم هذه العناصر: " المحاكاة والحكاية والعرض والتعبير، والنشيد ، وتحديده للأنواع الأدبية التراجيديا و الكوميديا "[2]؛أي أن مفهومه للشعر يحصر في المحاكاة و هي ليست رصفا لأحداث واقعية إنما هي عملية إبداعية يشكلها الشاعر، حيث أن فطنته تسد الثغرات الموجودة في الطبيعة وتدخل هذه المحاكاة ضمن حكاية والتي تشكل شعرية الشاعر، فالمحاكاة تظهر في طريقة صياغة الحكاية و ترتيب الأحداث و الأفكار وفق نظام محكم و ثابت.

كما شبه "أرسطو" المحاكي أو الشاعر بالرسام الذي يحاكي الطبيعة عن طريق لوحة فنية و يصنع صورا إبداعية جميلة فالأول يستعمل الكلمات والألفاظ و الثاني يستخدم الألوان والريشة كلاهما صانع ومبدع.

وبتسليمنا أن أصول الشعرية تعود للفيلسوف اليوناني "أرسطو" من خلال كتابة " فن الشعر" والذي ربطها بالفن الشعري وجمالياته، فإن شعريته قد اقتصرت على معالجة الملامح القديمة من الكوميديا وتراجيديا.

---

[1]- ينظر: يوسف وغليسي: الشعريات والسرديات، دار أقطاب الفكر، قسنطينة، الجزائر، د ط، 2006، ص 14.

[2]- مشري بن خليفة: الشعرية العربية مرجعياتها وإبدالاتها النصية، دار الحامد للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، د،ط، 2010م، ص 27.

وبمعالجته لهذه الفنون الأدبية والتي اعتبرت مرجعا لابد منه لمن جاؤوا بعده أمثال: "رومان جاكسون"الذي نظر إليها من زاوية لسانية، فهي"تهتم بقضايا البنية اللسانية، تماما مثلما يهتم الرسم بالبنية الرسمية ، وبما أن اللسانيات هي العلم الشامل للبنيات اللسانية، فإنه يمكن اعتبار الشعرية جزء لا يتجزأ من اللسانيات"[1]،وهي عنده قائمة بذاتها في مجال الدرس اللساني و يعتبرها فرعا من فروع اللسانيات،مجالها يتلخص في إخراج الكلمات من الدلالة المعجمية إلى دور أسمى في العملية الشعرية وهو إيصال القيمة الجمالية والفنية للمصطلحات ممّا يجعلنا نستنتج أن القائل باللغة الشعرية يستخدم كلمات مخالفة للّغة العادية، كما تحدث عن "وظائف اللغة كالتعبيرية و الإفهامية و المرجعية و الانتباهي هو الماوراء اللغوية [2]بالإضافة إلى الشعرية والتي تمنح للرسالة الشعرية سمة الأدبية.

بعدها نصل إلى شعرية جون كوهين التي وصفت على أنها قريبة من الشعرية العربية خاصة منها القديمةوالتي تقتصر على مجال الشعر فقط إن يقول: " الشعرية علم موضوعه الشعر"[3] وهو يحصر موضوع الشعر في العمل الشعري فقط، ولعلّ المعروف عن جون كوهين: مبدأ الانزياح اللغوي والذي يقوم على ثلاث مستويات كبرى: التركيبي والصوتي والدلالي أي أن العمل الأدبي يقوم على هذه المستويات الثلاث والتي لا يحققها النثر بل و يخلو منها تماما حسب نظره، ويقصد بالانزياح: " وجود تقليد شعري يحدده العرف العام، ويقتضي الشعر أن يكون انحرافاً وانزياحاً عن هذا التقليد الشعري لذلك تبحث الشعرية عند جون كوهين في تمييز الأساليب"[4]بمعنى أن اللغة الشعرية هي انزياح عن اللغة العادية إلى اللغة الشعرية المحملة بالتراكيب و الأصوات و الدلالات عكس اللغة النثرية التي تعتبر لغة شائعة و معروفة ومألوفة بين الناس.

---

[1] محمد عزّ الدين المناصرة: علم الشعريات - قراءة مونتاجية في أدبية الأدب -، دار مجد لاوي للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط1، 2007، ص 281.

[2]- محمد عز الدين المناصرة :علم الشعريات ،المرجع السابق ، ص 282.

[3]- مرشد الزبيدي: اتجاهات نقد الشعر العربي في العراق، منشورات الكتاب العرب، بغداد العراق، ط1، 1999م، ص 99.

[4]- المرجع نفسه، ص 99.

ويعتبر"تودوروف" أن كتب الشعرية ما هي إلا: "تعليقات على كتاب أرسطو فن الشعر"[1] معترفا أن الكتب الحديثةما هي إلا استنباط لما جاء به "أرسطو" منذ قرون خلت .

ولعل شعرية "تودروف" أوسع من شعرية "جا كيسون"و"جون كوهين"و تشمل كلا من العمل الشعري والنثري معا، وهذان النمطان يجمع بينهما رابط الأدبية فيقول : إن"العملالأدبي في حدّ ذاته هو موضوع الشعرية فما تستنطقه هو خصائص هذا الخطاب النوعي الذي هو الخطاب الأدبي... فإن هذا العلم (الشعرية) لا يعنى بالأدب الحقيقي بل بالأدب الممكن .... وبعبارة أخرى يعنى بتلك الخصائص المجردة التي تصنع فرادة الحدث الأدبي ، أي الأدبية "[2] فالشعرية في نظره لاتهتم بالأدب أو العمل الأدبي فحسب، وإنمّا تبحث في الخصائص المميزة لهذا العمل الأدبي التي تجعله يتفرد عن كافة أنواع الإبداع الأخرى ، فالشعرية عند "تودوروف" تتراوح بين الجانب النظري و الجانب التطبيقي من حيث تحليل الخطابات و النصوص و صولا إلى استخلاص المعايير التي تضبط تولّد كل عمل أدبي، ويمكن تلخيصها في محاور ثلاثة هي: تحليل أساليب النصوص، القراءة الضمنية للعمل الأدبي واستخلاص الشفرات و المعايير المكونة للعمل الأدبي.

إن البحث في الأصول الأولى للشعريةبتداءً من أرسطو ووصولا إلى الرواد الثلاثة للشعرية: "جاكسون"، "جون كوهين"، "تودروف"، القصد منه الوصول إلى أبعاد موضوع الشعرية مفهوما واشتغالا، ليتسنى لنا بعد ذلك الوقوف عند الشعرية العربية.

---

[1]-مرشد الزبيدي: اتجاهات نقد الشعر العربي في العراق، مرجع سابق، ص 98.

[2]-تز فيطان طودوروف: الشعرية تر، شكري المبخوث ورجاء بن سلامة، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب، ط2، 1990، ص 23.

2- الشعرية عند العرب

لقد نشأت الشعرية العربية في أحضان الشعر العربي لأنه كان ديوانهم والحافظ لعاداتهم وأنسابهم،ولعل المعلقات العشر التي علقت على أستار الكعبة ما هي إلاّ تعبير عن مكانة الشعر في نفوس العرب القدماء.

والمتتبع للشعرية العربية عبر الحقب الزمنية يجدها تبلورت مع جهود النقاد و البلاغيين القدماء، و من أبرزهم " الفرابي" الذي يقول: "و التوسع في العبارة بتكثير الألفاظ بعضها ببعض و ترتيبها و تحسينها فيبتدئ حين ذلك، أن تحدث الخطية أولا ثم الشعرية، قليلا قليلا"[1]

ومن خلال قوله تتضح الشعرية في السمات التي تظهر على النص وترتيب الألفاظ والكلمات بعضها ببعض لتشكل لنا العمل الأدبي، كما يربط الشعر بالموسيقى أي أنه صناعة وكلام مسجوع يؤدي إلى نوع من الموسيقى التي تؤثر في المخاطب فينتبه إلى فهم الغرض منه.

و ذهب " ابن سلام الجمحي" إلى ما ذهب إليه "الفرابي" على أن الشعر صناعة و يبدو ذلك في قوله: "و للشعر صناعة وثقافة يعرفها أهل العلم كسائر أصناف العلم و الصناعات"[2] فالقدماء اعتبروا أن الشعر صناعة تتمثل في المهارة و حسن النظم و لا يعرفها إلا أهلها أمثال: "قدامة بن جعفر"، "أبو هلال العسكري "و"الجاحظ" وغيرهم كثير.لقد تطرق "عبد القاهر الجرجاني" في كتابه أسرار البلاغة و دلائل الإعجاز كخطوة متقدمة نحو الشعرية، و الإشارة إليها ، لا كعلم قائم بذاته من خلال نظرية النظم إذ يقول واصفا جمالية النص: " توخي معاني النحو في معاني الكلم"[3] يتناولها بعد ذلك النقاد المحدثون بالدراسة و التحليل.

---

[1]- الفرابي أبو نصر، كتاب الحروف، تح: مهدي محسن دار المشرق، بيروت، لبنان، ط2، 1990م، ص 141.

[2]- محمد بن سلام الجمحي، طبقات الشعراء، مرجع سابق، ص 05.

[3]-خولة بن مبروك: الشعرية بين تعدد المصطلح واضطراب المفهوم، مرجع سابق، ص 365.

إنّ المتتبع لمسار الشعرية في تراثنا النقدي يجد أمامه "حازم القرطاجني" في كتابه " منهاج البلغاء و سراج الأدباء ،و الذي تحدث عن شعرية الشعر و قول الشعر متتبعا بذلك النظرية الأرسطية في أن الشعر محاكاة ،فيقول: "إن المعتبر في حقيقة الشعر إنما هو التخييل و المحاكاة"[1] ؛أي أن المحاكاة والتخييل يشكلان النص الشعري وذلك عن طريق اللغة، فالمحاكاة عنده تكون نتيجة لعلاقة المبدع بواقعه أما التخييل فهو تجسيد لتلك المحاكاة داخل العمل الأدبي، فعنصر التخييل أو الخيال هو العنصر الذي يؤثر في المتلقي ويحبب أو يكره له العمل الأدبي، و حسب المفهوم "القرطاجني" للشعرية فهي لا تكمن في القول الشعري فحسب وإنما تتجاوزهإلى كثير من الأعمال الأدبية، كما أكد على العناصر الفنية المولدة للشعرية التي تقوم على ركيزتين هما: التخييل والتأليف إذ أن العمل الأدبي لا يبنبدوهما:

– **التخييل:** إن من الخصائص الفنية المميزة للغة الأدبية عند حازم القرطاجني عنصر التخييل و هو: " أن تتمثل للسامع مع لفظ الشاعر المخيل أو معانيه أو أسلوبه ونظامه، وتقوم في خياله صورة أو صور ينفعل لتخيلها و تصورها، أو تصور شيء آخر بها انفعالا من غير روية إلى جهة الانبساط أو الانقباض "[2]أي أن عملية التخييل ترتبط بالجانب النفسي للمتلقي والتي تجعله يتخيل الصور و الانفعالات ، أي أن التخيل المرتبط بالشعر الذي يجعله يبدع و يحرك، الكلمات و الألفاظ ، بينما التخييل متعلق بالمتلقي الذي يبقى على أساسه صورا ينفعل لتصورها أو تخيلها، معتبراً المتلقي طرفا أساسيا في العملية الشعرية" يضع القرطاجني المتلقي عنصرا رئيسيا في مقارنة الشعر، ليبحث في عنصر التأثير فيه من خلال التخييل، وينحصر كذلك مع المحاكاة"[3]وهو يجمع بين عنصر ي التخييل

---

[1]-خولة بن مبروك: الشعرية بين تعدد المصطلح واضطراب المفهوم، مرجع سابق، ص 365.

[2]- محمد صلاح زكي أبو حميدة: دراسات في النقد الأدبي الحديث، د.د، غزة، فلسطين، د.ط، 1426هـ – 2006م، ص 20.

[3]- حسن ناظم: مفاهيم الشعرية - دراسة مقارنة في الأصول والمنهج-مرجع سابق، ص 52.

و المحاكاة الذي يخلق العمل الفني من خلال المستوى الفني للغةو التشبيهات والاستعارات والرموز التي تضفي الجانب الجمالي لعملية الشعرية.

- **التأليف:** ومن مقومات الشعرية أيضا حسن النظم والتركيب فالمبدع وجب عليه انتقاء الألفاظ والكلمات وحسن تأليفها بطريقة جيدة بحيث تؤدي أثرها الفني والنفسي في المتلقي وتغري السامع بالقبول والرضا أو النفور[1].

وهنا يمكننا أن نستنتج أصول الشعرية عند القدماء أمثال: "الفرابي"، و"ابن سلام الجمعي"و"عبد القاهر"الجرجاني"وانتهاء مع "حازم القرطاجني".

تعتبر المنطلق الفعليللمصطلح بدءً بالنظم مع "الجرجاني" وتبلور مع شعرية حازم القرطاجني من خلال عنصر التخييل ، كما أفادت الكتابات اليونانية "حازم القرطجاني" في استنطاق النصوص العربية ، فاستطاع أن يحو ر نظرية شعرية قائمة على التخييل والتأليف.

ثالثا- الشعرية العربية الحديثة والمعاصرة:

تختلف الشعرية العربية الحديثة عن الشعرية القديمة من حيث اتساع مفهوم المصطلح، ومن حيث ارتباطه بالشعرية الغربية لتشمل أنواع الخطاب الأدبي، وحتى نحدد ملامح الشعرية العربية الحديثة سنحاول الوقوف على نظرة بعض النقاد العرب وكيف عنوا بهذا المصطلح وشملوه بالدراسة.

1 -أدونيس:

يعتبر "أدونيس" من أبرز النقاد الذين اهتموا بموضوع الشعرية بل وخصصوا لها العديد من مؤلفاتهمولعل كتابه الموسوم" الشعرية العربية" الذي تناول فيه الشعرية وعلاقتها بالنص القرآني مركزا على بنية النص المعجز حيث

[1]- ينظر: محمد صلاح زكي أبو حميدة: دراسات في النقد الأدبي الحديث،مرجع سابق، ص 21.

يقول: "هكذا كان النص القرآني في تحول جذري وشامل به ، وفيه تأسست النقلة الشعرية إلى الكتابة"[1] بمعنى أن النص القرآني هو أساس العملية الإبداعية والثقافية وينبوعها الذي فجر أمامها عالما جديداو انتقل بها من الشفوية إلى الكتابة أي من الشفوية إلى التدوين" الشعرية الشفوية الجاهلية تمثل القدم الشعري وأن الدراسات القرآنية، وضعت أسس نقدية جديدة لدراسة النص بل ابتكرت علما للجمال، جديدا ممهدة بذلك لنشوء شعرية عربية جديدة"[2]

فأدونيس عني بالنص القرآني واعتبر ه معيار ا الجمال والبلاغة وحسن النظم مرجعا مهما لدراسة النص.

2 - كمال أبو ديب:

تحددت معالم الشعرية كمفهوم كمصطلح عند "أبي ديب" من خلال مؤلفه: " في الشعرية" الذي تناول فيه المفهوم بقوله: " خصيصة علائقية أي أنها تجسيد في النص لشبكة من العلاقات التي تنمو بين مكونات أولية سمتها الأساسية أن كلا منها يمكن أن يقع في سياق آخر دون أن يكون شعريا لكنه في السياق الذي تنشأ فيه هذه العلاقات، وفي حركته المتواشجة مع مكونات أخرى لها السمة الأساسية ذاتها، يتحول إلى فاعلية خلق الشعرية و مؤشر على وجودها"[3]،في هذا التعريف تركيز على أهمية العلاقات بين مكونات الإبداع الأدبي في إضفاء صفة الشعرية على العمل، فهي لا تكمن في الألفاظ المكونة للعمل، وإنما في النص باعتباره بنية متجانسة مكونة من أجزاء مترابطة فيما بينها من خلال علاقاتها ببعضها البعض لتشكل لنا شعرية النص.

---

[1]- أدو نيس: الشعرية العربية، مرجع سابق، ص 33.

[2]- المرجع نفسه، ص 51.

[3]- كمال أبو ديب: في. الشعرية، الأبحاث العربية، ط1، بيروت، 1987، ص 14

إن الجديد في رؤية "أبي ديب" للشعرية اعتبارها " إحدى وظائف الفجوة أو مسافة التوتر"[1] ،بمعنى أنهاخروج بالقار ئ من المعنى السطحي الظاهري إلى المعنى الخفي للعمل الأدبي وهذا ما أسماه بخيبة أفق المتلقي وهنا يكمن جمال العمل الأدبي "،و استخدام الكلمات بأوضاعها القاموسية المتجددة لا ينتج الشعرية بل ينتجها الخروج بالكلمات عن طبيعتها الراسخة إلى طبيعة جديدة، وهذا الخروج هو خلق لما أسماه الفجوة: مسافة التوتر"[2]؛فالشعرية تتحقق من خلال الخروج باللغة من مستواها العام التواصلي،إلى مستواها الجمالي الفني عن طريق خرقها لكل ما هو مألوف،فشعرية "أبي ديب" جمعت بين ما هو نظري و وما هو تطبيقي، ويبدو تأثره واضحا بالنقاد الغربيين أمثال :"جون كوهن" في اعتماده على مبدأ الانزياح.

إن اهتمام العرب المحدثين بالشعرية لا يقتصر على " أدو نيس" و" كمال أبي ديب" فقط، و إنما هناك العديد من الكتابات في النقد العربي الحديث ،كانت قد عينت بمفهوم الشعرية ،نذكر منها كتاب " الشعرية العربية" لجمال الذين بن الشيخ و الذي خصصه لدراسة العصر العباسي وقدم من خلاله إحصاءات دقيقة لمختلف المستويات الفنية في بناء القصيدة أفاد بها من أتوا بعده، وتعد الأفكار التي جاء بها و يريد تطبيقها على الشعر القديم العمودي من خلال النماذج التي قام بدراستها، و تحليلها في كتابه و التي تعود إلى القرنين الثاني و الثالث الهجريين كمحاولة لإضفاء أفكار جديدة على الشعر القديم.

رابعا- حول مفهوم الوصف

إن الوصف من الأدوات الجمالية في النص الرحلي، يعتمد عليها الرحالة، وقبل الخوض في دراسته لابد من الوقوف أولا على مفهومه اللغوي والاصطلاحي.

---

[1]-كمال أبو ديب : في الشعرية المرجع السابق، ص 21.

[2]-المرجع نفسه، ص 51.

1 - لغة:

جاء في "لسان العرب" مادة (وصف): "الوصف وصفك الشيء بحليته ونعته، وقوله في حديث عمر رضي الله عنه:إنّ لا يشف فإنّه يصف يصفها، يريد الثوب الرقيق إن لم يبين منه الجسد لرقته، فإنّه لرقته يصف البدن فيظهر منه حجم الأعضاء، فتشبه ذلك بالصفة كما يصف الرجل سلعته"[1] بمعنى أن الوصف مرتبط بالبنية الفيزيولوجية للمرأة، وإيضاح لتفاصيل جسدها وهو من جهة أخرى عرض للسلعة ومحاسنها

وجاء في "مقاييس اللغة": "الواو والصاد والفاء أصل واحد، هو لقة الشيء ووصفته أصفه وصفا، والصّفة الأمارة اللاّزمة للشيء (....)أمّا قولهم: وصفت الناقة وصوفا، إذ أجادت السير...." [2] أي وصفا الشيء جمّله وحليته، ربط "ابن فارس" الوصف بالجودة والإستحسان

أمّا في معجم المصطلحات العربية الوصف هو:"إنشاء يراد به إعطاء صورة ذهنية عن مشهد أو شخص أو إحساس أو زمان للقارئ أو المستمع، وفي العمل الأدبي يخلق الوصف البيئة التي تجرى فيها أحداث القصص"[3]

بمعنى أنّ الوصف هو تصوير لمشهد أو شخص أو إحساس أو زمان للمتلقي وهو خلق للبيئة التي تجري فيه أحداث العمل الأدبي.

2 - اصطلاحا:

تضاربت واختلفت آراء الدارسين حول مفهوم المصطلح منذ القديم إذ عرفه القدماء:" فالوصف عند العرب القدامى هو تصوير الظواهر الطبيعية بصورة واضحة التقاسم وتلوين الآثار الإنسانية بألوان كاشفة عن الجمال"[4]

---

[1]–محمد بن مكرم بن منظور: لسان العرب، مرجع سابق ،مادة (وصف)ص4849.

[2]– أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا: تح:عبد السّلام محمد هارون، دار الفكر، بيروت، لبنان، ج6، ص 116.

[3]– مجدي وهبة، كامل المهندس: معجم مصطلحات العربية في اللغة العربية، مرجع سابق، ص433.

[4]– عبد العظيم علي فتاوي: الوصف في الشعر العربي، مصر، دط، 1949، ج1،ص 42.

فالوصف قديما هو نقل للأشياء بصورة حقيقية وتعبير عن أحوالها وهيئاتها كما هي في العالم الخارجي.

عرّف "قدامة بن جعفر" الوصف بقوله: "الوصف إنّما هو ذكر الشيء بما فيه من الأحوال والهيئات، ولما كان أكثر وصف الشعراء، إنّما يقع على الأشياء المركبة من ضروب المعاني" [1]؛ أي إبراز حالة الأشياء والأحوال حقيقتها ووصفها وصفا دقيقا.

كما عبّر "أبو هلال العسكري" عن وجهة نظر مشابهة بقوله: "ينبغي أن تعرف أنّ أجود الوصف ما يستوعب أكثر معاني الموصوف حتى كأنّه يصوّر الموصوف لك فتراه نصب عينيك"[2] أي أنّ الوصف هو الإلمام بصفات الموصوف بصورة شاملة تجعل القارئ أو المستمع وكأنّه يراه أمامه.

أمّا النقاد والباحثون الغربيون فقد ربطوا الوصف بالمحاكاة، وذكروا أصنافه و منها: وصف المكان: كالأودية والجبال والمدن والقرى والمنازل والحدائق والغابات وغيرها، ووصف الزّمان والظروف ووصف الكائنات الحيّة.

وإذا كان الوصف عند العرب قد ارتبط بالشعر فإنّه عند الغربيين لطالما ارتبط بالمحاكاة؛ فهم يستخدمون كلمة وصف للإشارة إلى كتب تصف بعض المدن المهمّة للمهندسين والمعماريين والجوالين أثناء تنقلهم خارج مدنهم الأصلية[3].

إنّ اهتمام الغربيين بالوصف من الناحية المادية كوصف المدن وغيرها يحيلنا إلى ما ذهب إليه قدمائنا في وصف رحلاتهم، باعتباره يؤكد زيارتهم للأماكن والبلدان ويثبت لقاءهم بالملوك والأعيان ويظهر بشكل واضح في رحلات: "ابن بطوطة" و"أبو عبد الله العبدري" و"ابن خلدون" و"ابن جبير"...

---

(1)– أبو الفرج قدامة بن جعفر: نقد الشعر، تح: محمد عبد المنعم خفاجي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، د ط، د ت، ص 130.

(2)– محمد نجيب العمامي: الوصف في النص السردي بين النظرية والإجراء، دار محمّد علي للنشر، صفاقس، تونس، ط1، 2010، ص 14.

(3)– ينظر: المرجع نفسه ، ص 16.

إذن الوصف في المصطلح الأدبي هو تصوير للعالم الخارجي من خلال الألفاظ والعبارات باعتبار اللغة قادرة على استحضار الأشياء المرئية وغير المرئية على هيئتها في الواقع.

خامسا- وظائف الوصف في أدب الرحلة العربي القديم.

إنّ كل عمل أدبي حينما يشد القارئ إليه يكون عن طريق عنصر أو شخصية... وإذا ما وقف الكاتب أوقف القارئ عند هذا العنصر، فلا بدّ له أن يتساءل حول وظيفة هذا العنصر.

وإذا ما نظرنا من زاوية الوصف نجد له عدة وظائف باختلاف تسمياتها وتعددها عند دارسيها، ومن بين هذه الوظائف:

1 - الوظيفة التفسيرية:

وتسمى أيضا بالوظيفة التوضيحية إذ تختص بتفسير وصف الرحلة حيث "يكون للوصف وظيفة رمزية دالة على معنى معين في إطار سياق الحكي[1]

بمعنى أن وظيفة تفسيرية يعتمد عليها الرّحالة في تفسير ما يراه ويشاهده في إطار سياق معين وهذا ما يضفي على النّص خصوصية ، ومثال ذلك قول "العبدري" في وصف فصاحة أهل برقة واستخدامهم الإعراب بما لا تجده في سائر البلدان، معللا ذلك، وهو تعليل دقيق، بعدم اختلاطهم بغيرهم، فيقول:"وعرب برقة اليوم من أفصح عرب رأيناهم"لم يكثرو ودود النّاس عليهم، فلم يختلط كلامهم بغيره وهم الآن

[1]– فوزية قفصي: شعرية الوصف في أدب الرحلة، رحلة ابن بطوطة أنموذجا، مجلة التواصل، العدد 37، جامعة باجي مختار، عنابة، مارس 2013، ص159.

علـى عـربيتهم لم يفسـد مـن كلامهـم إلا القليـل، ولا يخلـون مـن الإعـراب إلا مـا قـدر لـه، بالإضـافة إلى مـا يعربون"[1]يفسر فصاحة أهل برقة تفسيرا علميا، فهم محافظون على لغتهم و لأنهم لم يختلطوا بغيرهم.

و من أمثلة الوظيفة التفسيرية للوصف في الرحلة، نذكر ما أورده "جو ج غريب" عن أحد أشهر الرحالة العرب قديما يقوله" و المسعودي هو الذي علل بعض المظاهر الطبيعية تعليلا منطقيا فقال:إن بحر الصين و الهند و فارس و اليمن متصلة مياهها غير منفصلة إلا أن هيجانها و ركودها يختلف لاختلاف مهاب رياحها، و إبان ثوراتها، و غير ذلك فبحر فارس تكثر أمواجه و يصعب ركوبه عند لين بحر الهند، واستقامة الركوب فيه وقلة أمو اجه، ويلين بحر فارس، وثقل أمواجه وسهل ركوبه عند ارتجاج بحر الهند واضطراب أمواجه و ظلمته و صعوبته عند ركوبه..."[2].

فالمسعودي لم يكتف بوصف ما شاهده من ظواهر طبيعية بل قدم تفسيرا موضوعيا لهذه الظواهر، و هذه المعلومات بالنسبة للعصر الذي عاشه الرحالة المسعودي تعتبر اكتشافا ذا قيمة علمية كبيرة خاصة لدى البحارة المسلمين الذين يقصدون مختلف ربوع أسيا للتجارة عن طريق البحر فالرحلات من هذا الجانب تعتبر" منبع ثر ة لمختلف العلوم، و هي بمجموعها سجل حقيقي لمختلف مظاهر الحياة و مفاهيم أهلها على مر العصور"[3]، تتعرض لهذه المظاهر بالتحليل والتفسير

2- الوظيفة الجمالية:

هـي بمثابـة عمـل تـزييني[4] يكـون اسـتراحة وسـط بـين الأحـداث غـير مـرتبط بـالحكي وغـير مـرتبط بتطـور الأحـداث، وإنّـا تعبير منمق ومزين يضفي على العمل الأدبي جمالا فنيا بحيث ينقل المتلقي أو السامع إلى عـالم

---

[1]– أبو عبد الله العبدري:ر حلة العبدري، تح: علي إبراهيم كردي، دار سعد الني للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، ط2، 2005، ص 206.

[2]- جورج غريب: أدب الرحلة تاريخية وأعلامه. المسعودي ابن بطوطة، الريحاني- دار الثقافة بيروت، لبنان، ط، د ت. ص33.

[3]- حسني محمود حسين، أدب مرحلة عند العرب، مرجع سابق، ص7.

[4]– ينظر: فوزية قفصي: شعرية الوصف في أدب الرحلة العربي القديم- رحلة ابن بطوطة أنموذجا- مرجع سابق، ص 159.

آخر يتوق إلى رؤيته ،فيزيد فيجمالية النّص وإبداعه، وبما أنّ الوظيفة الجمالية هي نقل للقارئ من عالم لآخر،فيصبح متخيلا لأشياء لا توجد أمامه ،فإن هذا ما نجده في اللغة الشعرية التي تنزاح بالقارئ من اللغة العادية إلىلغة أخرى ذات خصوصية يجعله يتصوّر تلك الأشياء والأماكن والشخصيات وكأنّها ماثلة أمامه.

وتظهر الوظيفة الجمالية جلية في الوصف الذي خص به الرحالة "العبدري تونس بقوله": "عروس الغروس، وحليت بها على ممر الحروس الطروس، لا تنشد بها ضالة من العلم إلا وجدتها، ولا تلتمس بها بغية معوزة إلا استفدتها، وأهلها ما بين عالم كالعلم، رافع بين أهله للعلم (...) فاقت بحسن مغانيها واتقان مبانيها غيرها من المدن وطالت، وسطت بنخوتها، واتنخت بسطوتها على قواعد الشرق والغرب وصالت، وترجم حسنها البهيج وعرفها الأريج عن معناها، ولو نطقت لقالت:

أنا الغادة الحسناء فاق جمالها	**قالت يميننا لا خطبت ولا زوج**
إذا الغانيات ارتدن وصل بعولة	**فما بيو لا فخر إلى الزوج من حوج**
و في لمكدود الجحيج استراحة	**فهم يردوني الدهر فوجا على فوج**
و إني إلى البيت العتيق كسلم	**به يرتقي من في الحميض إلا الأوج**[1]

بعد أن أسهب العبدري في وصف تونس ومختلف مظاهر جمالها وعلمو كرم أهلها، وتعدى ذلك إلى تفضيلها على غيرها من المدن العربية، بأسلوب ثري أدبي زاخر بالخيال والبديع ،نجده يورد ذه الأبيات وفيها إعادة للمعاني السابقة التي ذكرها، كأني به يؤكد ويصر عليها، لكن هذه المرة في قالب شعري فيه الخيال مافيه، فهو

[1].أبو عبد الله بن محمد بن علي بن أحمد بن سعود العبدري: رحلة العبدري، حققها على إبراهيم كروي دار معد الدين، دمشق، سوريا الطبعة الثانية 2005م، ص109.

يشبه تونس بالغادة في حسنهاو جمالها و مكانتها، ثم يذكر فضلها فهي طريق يرتاده الحجاج لبيت الله الحرامو كأنه يريد أن يضفي عليها نوعا من القداسة عن طريق ربطها بإقامة إحدى الشعائر المقدسة لدى المسلمين.

لقد استطاع العبدري أن يصور لنا إعجابه الشديد بهذه المدينة، عن طريق الأوصاف التي قدمها بأسلوب أدبي صبه في قالبين ،رغم اختلافهما شكلا إلا أنه برع في المزج بينهما فأضحى الخطاب واحدا مترابط الأفكار و العاطفة، دون أن يفقد بعده "الرحلي" ،من خلال المعلومات التاريخيةو الجغرافية التي أوردها (البيتين الأخيرين)، ودون أن يخرج الوصف عن وظيفته الجمالية .

3- الوظيفة السردية:

يعتبر السرد المكون الرئيس للخطاب الرحلي عموما، فالكتابة السردية تصف الأحداثو الأفعال التي قامت بها الذات الكاتبة، و التي تنتقل من نقطة الانطلاق و تعود إليها. و" الرحلة بوصفها حكايةو خطاب فإن بدايتها تكون من نقطة الانطلاقالتي حددها خطاب الرحلة بواسطة الرحاّ ل/ الراوي /المؤلف، و بتدقيق أكثر عندما يبرز صوت الراوي واضحا لنقل الحكاية على لسانه، منطلقا بحركة السرد في تنظيم سردي يتقدم إلى الأمام حتى نهاية خطاب الرحلة إما مع حركة الزمن الواقعي للرحلة، أو من خلال تنظيم سردية الرحلة استنادا إلى منطق الأحداث الداخلي و هذا ما نطلق عليه التتابعية التي تميز النصوص الأدبية السردية عن النصوص الوصفية"[1]. فالتتابعية الزمنية تخضع لها جميع الخطابات السردية ويكون التتابع وفق منطق محدد فإما السير في تتابع خطي أو التقدم و التراجع وفق تقنيات، تتميز بها الكتابة الروائية عادة "أما الرحلة بوصفها خطابا سرديا لحكاية واقعية فإن تتابعية خطابها السردي تخضع بالضرورة إلى زمن الحكاية (متن الرحلة)، فيتطابق زمن الخطاب السردي مع زمن الحكاية

[1]- عبد العليم محمد إسماعيل علي: تقنيات السرد أساسا أدبية الرحالة، جائزة الطيب صالح العالمة للإبداع الكتابي، الدورة الثامنة، 2018 ، ص 14.

ويتقدم زمن الخطاب السردي للر حلة في مطابقة مع زمن الحكاية الواقعية"[1] و تخضع جل الرحلات العربية القديمة إلى هذه الصيغة الزمنية الخطية، حيث تبدأ الرحلة و يبدأ معها السرد مستمرا إلى نهايتها في مسيرة سردية تتكون من مقاطع سردية تتراوح بين الحضور الدائم و الحضور المتقطع أو الغياب التام، "فالمسيرة السردية في الرحلات تتخللها محطات يتوقف فيها السرد ليفسح المجال لمكونات أخرى بالاشتغال و هكذا يوقف الراوي السرد ليقدم وصفا أو يقدم معلومات و معارف، أو ليسوق شعرا. و بعد الانتهاء من هذا يعود السرد إلى جريانه"[2]. و هذه المحطات يمكن أن نعتبرها وقفة للسارد لالتقاط النفس السردي إن جاز التعبير أما بالنسبة للملتقى فهي تعتبر الطريقة الأمثل للقضاء على الرتابة والملل. وقد يكون السرد في حد ذاته وصفا، خاصة إذا ما تعلق بوصف سلوكات وأحداث معينة، و في هذا الصدد نورد نصا سرديا للرحالة الفذ" ابن بطوطة" في وصفه لأحداث صاحبت رحلته إلى الهند فيقول: "بعد مدةأني كنت بمدينة أكثر سكانها الكفار تعرف بابحري، و أميرها مسلم من سامرة السند، و على مقربة منها الكفار العصاة، فيقطعوا الطريق يوما، و خرج الأمير المسلم لقتالهم و خرجت معه رعية من المسلمين و الكفار، و وقع بينهم قتال شديد مات فيه من رعية الكفار سبعة نفرو كان لثلاثة منهم ثلاث زوجات، فاتفقن على إحراق أنفسهن و إحراق المرأة بعد زوجها عندهم أمر مندوب إليه، غير واجب لكن من أحرقت نفسها بعد زوجها أبرز أهل بيتها شرفا بذلك، و نسبوا إلى الوفاء و من لم تحرق نفسها لبست خشن الثياب، و أقامت عند أهلها بائسة ممتهنة لعدم وفائها، و لكنها لا تكره على إحراق نفسها"[3]. يصف لنا ابن بطوطة في هذا النص حدثا رئيسا يتمثل في كيفية تشييع جنازة الموتى في الهند و المراسيم المصاحبة لهذا التشييع، وبما أن موضوع الوصف

---

[1]- عبد العليم محمد إسماعيل علي :تقنيات السرد أساس أدبية الرحلة، المرجع السابق، ص 14.

[2]-محمد الحاتمي: الرحلات المغربية السوسية بين المعرفي والأدبي، مرجع سابق، ص27.

[3]- ابن بطوطة: تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، الشيخ محمد عبد المنعم العريان، دار إحياء العلوم، بيروت، ط1 1987 ،ج1،ص423.

عبارة عن عادات وتقاليد تتحدد بأفعال وسلوكات تقوم بها الشخصيات، فإن وظيفة الوصف في هذه الحالة تكمن في سرد تلك السلوكات لإعطاء تصور معين في ذهن المتلقي.

4- الوظيفة التصويرية:

تسمى أيضا الوظيفة التمثيلية ،حيث يتم تصوير الواقع تصويرا فوتوغرافيا فالمر ّحالة حين يصف شخصية أو مكانا أو نباتا أو حيوانا ، يجعل القارئ يتصّر الموصوف وكأنّه ماثل أمامه ،فمثلا يستعمل الر ّسام الريشة والمصو ّر عدسة الكاميرا ليصو ّر ما يشاهد، يستعمل الر ّحالة الكلمات والأوصاف والتشبيهات ليصو ّر لنا ما يراه يلكّون الوصف وهو يكتسب صفة التصويرية بمثابة العين التي يطل ّ منها المتلقي على عالم النّص"[1] أي تصوير الواقع وكأنّه يراه بالعين المجردة، وهذا ما نجده حين وصف " ابن فضلان" حفلة لدفن زعيم روسي "حتى استطاع أحد الرسامين الروس في نهاية القرن التاسع عشر، أن يرسم صورة حيّة لتلك الحفلة معتمدا على وصف "ابن فضلان" والرسم لا يزال موجودا في المتحف التاريخي في موسكو"[2]، وهذا ما يؤكد براعة الرحالة المسلمين في تصوير الأشياء تصويرا دقيقا تسمح للقارئ بتخيلها أمامه.

و من أمثلة الوصف التصويري أيضا النص التالي للرحالة "ابن فضلان"، يصف فيه البرد من خلال أثره على الأشياء فيقول: "و لقد رأيت لهواء جودها بأن السوق بهاو الشوارع لتخلو حتى يطوف الإنسان أكثر الشوارع و الأسواق، فلا يجد أحداو لا يستقبله إنسان و لقد كنت أخرج من الحمام، فإذا دخلت إلى البيت نظرت إلى لحيتي و هي قطعة واحدة من الثلج حتى كنت أدنيها إلى النار"[3]،فقد استطاع "ابن فضلان" أن يصف لنا البرد من خلال أثره في الشوارع والناس، واستطاع أن يفلت من فخ التقرير، باستعماله أساليب تخييليه مبدعة تظهر المعاناة

---

[1]–الحبيب مونسي: شعرية المشهد في الإبداع الأدبي، دار الغرب للنشر والتوزيع ، وهران، 2003، ص116.

[2]–أحمد رمضان أحمد:الرحلة والر ّحالة المسلمون، دار البيان العربي للنشر والتوزيع، جدة، السعودية، 2013، ص 48.

[3]- أحمد بن فضلان بن العباس بن راشد بن حماد: رسالة بن فضلان ، تح: سامي الجهان دمشق، المطبعة الهاشمية، د ط 1960م، ص85.

التي عاشها، فتنقل لنا صورة حية من خلال الوصف والتصوير الذي يبرز الحقائق في ثوب فيه نوع من الطرافة. ويضيف قائلا " ولقد رأيت الأرض تنشق فيها أودية عظام لشدة البرد، وأن الشجرة العظيمة العادية لتنفلق بنصفين لذلك"[1]، فابن فضلان لم يقدم تقريرا عن البرد يبرز فيه الحقائق كما عاينها، بل يقدم صورة له من خلال ما فعله في المكان (الأودية، الأشجار) كأنه يرسم لنا مشهدا مهولا ويجعلنا نستحضره بكل تفاصيله ونعيش المعاناة التي يعيشها سكان تلك المنطقة، مستعملا في ذلك ألفاظا قوية وشديدة تعبر فعلا عن شدة البرد: (ولقد، تنشق، لشدة، أن، الشجرة، لتنفلق).

وإجمالا يؤدي الوصف في الرحلة وظائف عدة ،أهمها تلك المذكورة آنفا بالإضافة إلى وظائف أخرى مرتبطة بها كالوظيفة الإخبارية والوظيفة التقريرية وغيرها ...

سادسا- شعرية الوصف الرحلي:

يعتبر الوصف مقوما أساسيا في أدب الرحلات باعتباره أسلوبا من الأساليب التي اعتمدها الكثير من الأدباء والنقاد إلىدرجة تجعل من الرحلة تقريرا يركز على كشف أبعادها السردية وصولا إلى صور تبني معالم الفضاءات ومكوناتها، حيث يقوم بتقديم الصور والمشاهد في إطار الوصف باعتباره وسيلة ذات قيمة فنية وأدبية بين السرد والوصف بجملة من المفاهيم المرتبطة بالوصف الرحلي أهمها:

1 - الصورة:

لقد اختلفت الآراء وتعددت المواقف في تحديد مفهوم الصورة وإدراك لطبيعتها وارتباطها بالقالب الشعري، انطلاقا من تصور ارتبط بالسياق النقدي القديم، ولتقديم نظرة أكثر وضوحا عن الصورة يقدم معجم المفصل في

[1]- أحمد بن فضلان :رسالة ابن فضلان ،المرجع السابق، ص86.

اللغة والأدب مفهوما شاملا لها: "صورة الشيء هي رسمه نقلا وتقريرا أو شبهه وتمثاله تقريبا ومحاكاة، والصورة مادية حسية، وإما معنوية تدرك بالعقل والتمثيل الخيالي والصورة الأدبية هي ما ترسمه، على نحو ما، للذهن المتلقي، كلمات اللغة، شعرا أو نثرا، من ملامح الأفكار والأشياء، والمشاهد، والأحاسيس والأخيلة بعد أن كانت في المنطلق ممثلة في ذهن الكاتب..."[1]

من خلال القول نجد بأن الصورة تصور مقترح عن طريق اللغة باعتبارها الملكة الأساسية والصورة الأدبية التي تعبر عن شكل من أشكال التخيل التي ترسمها اللغة، فالصورة جزء لا يتجزأ من تجربة الحياة البشرية تهتم بشكل خاص بدراسة الصور والتصورات سواء كانت أدبية أو غير أدبية.

والمطلع على الوصف الرحلي يرى أن الصورة تتعدد بتعدد أنواعها أي أنواع الصور ، ونذكر منها: [2]

أ-الصورة البلاغية: وهي صور مجازية تعبر عن صورة مرئية يمثلها الخيال فهي عبارة عن تراكيب ذات إيقاع، سواء من خلال تغيير مكونات الجمل من خلال ترتيب الألفاظ والتعبير عن المعاني، فنجد الصور التعبيرية دائما تهدف إلى إثارة انتباه المتلقي وتنبيه العقل إلى استحداث علاقات مباشرة بين المدلولات.

ب-الصورة الكاريكاتورية:ويعتبر هذا النوع من الصورة بوصفه وإبرازه في صورة مشوهة لموضوع ما بإعطائه صفات سلبية عنه، فيكون التركيز على هذه الصورة من خلال المبالغة بقصد السخرية، والمقصود من السخرية ليس فقط ما يتعلق بالإنتقاض من الموصوف بل موضوع من إيجاد لكسر المحتمل فهي أحد أهم أقنعته.

ج-الصورة النمطية:وتعد من أبرز الصور التي تقوم على تصورات أهمها ما ارتبط بالأدب واللغة من أجل تحديد دلالات وصفية حيث تجمع بين الصفات التي تميز الموضوع أي أنّها تكون في قالب جاهز ومنها ما هو إلزامي

---

[1]– بديع يعقوب إميل وعاصي ميشال: معجم المفصل في اللغة والأدب، دار العلم للملايين، بيروت، ط1، 1987ج2، ص 774.

[2]– ينظر: المسعود جوادي: الرؤية المركزية- دراسة مقارنة في أنساق الخطابات الرحلية العربية والغربية- رسالة دكتوراه، تخصص أدبي، جامعة قاصدي مرباح، ورقلة، 2016-2017، ص 129.

مرتبط بقيم ومعايير اجتماعية

ومن هنا نستخلص بأن هذه الأنواع الثلاثة للصورة ارتبطت ارتباطا وثيقا بمعطيات الدراسة في تعلقها بموضوع الرحلة وبنائها كما تعد هذه الأنواع من أهم وأبرز وأكثر الصور تعبيرا على النظام التعبيري للغة[1].

2- الخيال والتخييل:

يتضح مما سبق بأن الرحلة وشعريتها ارتبط ارتباطا وثيقا بالصورة الفنية أي بوصف الرحلات بطريقة سردية ملائمة توفي بالغرض المطلوب من خلال عدة أنواع للصور المذكورة سابقا ، فهي لا تعتمد عليها فقط بل تستدعي الذاكرة والخيال من أجل توضيح الصورة التي يكونها الرحالة فتكون مرتبطة بمخيلته، وفي هذا السياق يهدف علم الصورة إلى الكشف عن أشكال تفاعل الرحالة واصطدامهم مع الغير (الآخر)خلال مسارهم رحلاتهم في المكان والزمان،و لا يسعنا الحديث عن الصورة دون استحضار ثنائية الهوية والغيرية؛ أي الخيال والتخييل،فصورة الغير لا تنفك عن الغير ،و الحديث عن الهوية يفرق ويجمع ،على اعتبار أن "الصورة هي ترجمة (للآخر)، وهي أيضا ترجمة ذاتية"[2] وواقع الأمر يشير إلى أن الرحالة دائما يعبر عن هويته وهوية قومه أو مجتمعه من أجل معرفة الذات المنعزلة مع نفسها ووجود دافع الغير إلى لقاء الآخر ومن هنا يتضح بأن الحديث عن الذات يمر عبر وساطة لقاء الآخر.

ثم إن مصطلحي الخيال والتخييل من المصطلحات التي لها إشكاليات معرفية لا يمكن الوقوف على مدلولاتها إلاّ من خلال تصورها في سياقات فلسفية، "فالخيال تمثل وصياغة للصورة غير الموجودة أو تلك التي تستحضر، وتركب كفاعلية ونشاط ذهني بشري،...في حين أن التخييل يقطع الصلة في تصور الفلسفة الوضعية،

---

[1]– ينظر: المسعود جوادي: الرؤية المركزية- دراسة مقارنة في أنساق الخطابات الرحلية العربية والغربية-المرجع السابق ، ص129.

[2]– ينظر: المرجع نفسه ،ص 130، 131.

بالمحايثة والإدراكية"[1]. من خلال القول تبين لنا أن ملامح الخيال والتخييل تندرج ضمن دلالات متعددة السياقات باعتبار المصطلحين ذا صلة بمصطلح الصورة ،أي استحضار الصور التي سبقت رؤيتها من خلال القدرة الذهنية في معرفة الصور والتجارب الحساسة فهنا يكمن الخيال المبدع في استنباط صور وأشياء لم تسبق رؤيتها أي خلق وتركيب صور جديدة.

من هنا نلمس أهمية الصورة في استظهار ووصف الرحلة أو الرحلات بأنواعها المختلفة، فمعظم الأعمال الفنية سواء أكانت في إبراز جماليات الصور اعتمادا على مرجعيات نصية ونماذج مستقاة من واقع الرحالة، أو اعتماد الخيال والتخييل باعتبارهما قوة عقلية تجعل للمتخيل قدرة على الابتكار في تصور الأشياء وتمثلها.

سابعا- الأشكال البلاغية للوصف

يتحدد الوصف في الرحلة حسب ضوابط صارمة محصورة في تصانيف بلاغية ،يلجأ فيها الرحالة إلى التنويع في أساليب لتعبير معتمدا على عنصر القصّ ،ويعدّ الوصف من الدعائم الأساسية التي يتوصل بها المؤلف لنقل مشاهده والتعريف بالبلدان المجتازة -أثناء الرحلة- والأشخاص لتحديد صفاتهم الخلقية والخُلقية،بالإضافة إلى التعبير عن عاداتهم وموروثاتهم التقليدية ووصف الموجودات التي يراها في محيطهم، فالوصف في الرحلة لا يأخذ لونا واحدا وإنّما تتعدد ألوانه من: وصف للبلدان والأماكن إلى وصف للإنسان بمظاهره المختلفة وكل الأشياء الأخرى التي قد تشد الرحالة و تغريه بوصفها .

1-وصف الأشخاص وعاداتهم وتقاليدهم:

إن وصف شخص يتطلب: " توظيف كل مصادر المعرفة المتوفرة لرصده في مظاهره العامة وفي خصوصيته

[1]– ينظر: نصر عاطف جودة: الخيال مفهومه وظائفه، الهيئة المصرية، العامة للكتاب، مصر، 1984، ص 41.

الذاتية بكل أجزائها وجزئياتها، وحركاته وعاداته في المأكل والملبس والمسكن وكل اهتماماته المختلفة"[1].

و الوصف في الرحلة يختلف عن الوصف في العمل الروائي أو أي عمل أدبي آخر؛ فهو وصف واقعي للشخصية، لأن وجودها حقيقي على أرض الواقع وليس من وحي الخيال ،بينما الرحالة يقوم بمهمة المصور الفوتوغرافي، ويصور لنا الشخصية التي رآها أو جالسها بالكشف عنها وإظهار ما هي عليه، سواء على المستوى الخارجي أو ما تعلق بالصفات المعنوية الأخرى كالأخلاق، والتصرفات والقدرات النفسية والذهنية وغيرها، ليتيح لنا من خلال هذا الوصف التعرف على الشخصية الموصوفة بجميع جوانبها الروحية والمادية .

والرحلة العربية زاخرة بهذا النوع من الوصف ، ومن أمثلة ذلك وصف "ابن بطوطة" لسلطان قصطامونية بقوله: "وهو كبير السن ينيف عن سبعين سنة، حسن الوجه، طويل اللحية، صاحب وقار وهيبة، يجالسه الفقهاء والصلحاء "[2] ،و هو في هذا الوصف يمزج بين ما هو ظاهري (الوجه واللحية)، وما هو معنوي كالوقار والهيبة وابن بطوطة لا تراه يستعرض الأوصاف الجسدية إلا إذا استدعى المقام ذلك مثل قوله"القاضي الأو ّل أعور العين اليمنى والثاني يشابهه في صورته وعوره إلاّ أنّه أعور اليسرى"[3] فبوصفه هذا يجعل القارئ يتخيلهويتصوره وكأنّه شاهده أمامه.

أمّا إذا نظرنا إلى رحلة "ابن فضلان" فإنا نجده أيضا لا يقف في وصف الأشخاص على أشكالهم ، بل يتعداه إلى وصف سلوكاتهم وطرائق تعبيرهم وردود أفعالهم وقد خص الأتراك بأكثر الأوصاف الساخرة بأدق التفاصيل السلوكية ،و يصف قذارتهم وحبهم لأكل القمل فيقول:" ووقفنا في بلد قوم من الأتراك يقول لهم

---

[1]– أبو حامد عبد الرحيم الأندلسي الغرناطي: تحفة الألباب ونخبة الإعجاب، تح: إسماعيل العربي، دار الآفاق الجديدة، المغرب، ط1، 1993، ص 78..

[2]– محمد مصطفى زيادة: رحلة ابن جبير ورحلة ابن بطوطة،المعهد الخليفي للأبحاث المغربية، بيت المغرب، القاهرة، مصر، 1939، ص 18.

[3]–المرجع نفسه، ص 403.

الباشغرد، فحذرناهم أشد الحذر، ذلك أنهّم شر الأتراك وأقذرهم وأشدهم إقداما على القتل، يلقي الرجل هامته ويأخذها ويتركه، وهم يحلقون لحاهم، ويأكلون القمل" [1]

لقد نقل الرحالة في نصوص رحلاتهم كثيرا مما رأوه أو عايشوه وألقوا الضوء على كثير من العادات والتقاليد من زواج وأعياد وأطعمة وأشربة وملابس وأحكام وجنائز، وقاموا بتصويرها في نصوصهم الرحلية، ومنها تلك العادات التي أصبحت شكلا من أشكال البدع الاجتماعية، يقول "أبو حامد الغرناطي" في وصفه للعادات المتبعة عند بعض الأقوام في دفن الموتى، وتشييع الجنائز وطرائق تقبل العزاء عندهم؛ في بلاد "دربند" يسلم الميت لرجال في بيوت تحت الأرض " يقطعون أعضاء الميت وينقون عظامه من اللحم (...) ويجمعون لحمه فيطعمونه للغربان السود، ويقفون بالقسي يمنعون غيرهم من الطير أن يأكل من لحمه شيء، وإن كانت امرأة (...) يخرجون عظامها، ويطعمون لحمها للحدأة "[2].

وسلط الرحالة أضواءهم على عادات بعض الشعوب في الأكل وطرق تناول الأطعمة، ومثال ذلك ما ذكره "لسان الدين بن الخطيب" في وصف أنواع الطعام والشراب التي زينت موائد أهل جبل هنتانة ترحيبا بقدومهم، حيث يقول: " ولم يكد يقر القرار ولا تنزع الخفاف حتى غمر من الطعام البحر وطما الموج، ووقع البهت، وأمل الطحو، ما بين قصاع الشيزي أفعمها الترد وهيل بها السمن، وتراكبت عليه السمان الحملان الأعجاز، وأخونة تنوء بالعصبة أولى القوة غاصة من الآنية بالمذهب والمحكم، مهدية كل مختلف الشكل، لذيذ الطعم مهان فيه عزيز

---

[1]– أحمد بن فضلان: رحلة ابن فضلان إلى بلاد الترك والروس والصقالبة، تح: شاكر لعيبي، السويدي للنشر والتوزيع والمؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان، ط1، 2003م، ص 101.

[2]– أبو حامد عبد الرحيم الأندلسي الغرناطي: تحفة الألباب ونخبة الإعجاب، تح: إسماعيل العربي، دار الآفاق الجديدة، المغرب، ط1، 1993، ص 78.

التابل، محترم عنده سيرة الأحاصرة الثلاثة"[1] ، وعلى الرغم من أن الوصف السابق لأشياء جامدة إلا أن براعة تصوير الرحالة ،وتنويعه بين الجمل الاسمية والفعلية ، منحت وصفه نوعا من الحركة والحيوية كما ساهمت في تمثلنا لهذا المشهد وكأننا نراه أمامنا .

إن المدونة الرحلية تزخر بالعديد من الأمثلة والشواهد أو لنقل الصور المختلفة التي يراها الرحالة ويعاينها ثم يعيد رسمها وتصويرها بالطريقة التي تجعلنا نتمثل تلك الصورة أمامنا لمختلف وكأننا في حضرة الموصوف ، فهذا الإنسان بكل أبعاده قد شكل من خلال الرحلة حلقة من حلقات المدونات الأدبية والثقافية للشعوب وعلاقتها ببعضها البعض.

2- وصف المكان

إنّ المكاهو المادة الأساسية والمحورية التي يبني عليها الر ّحالة عمله، فنجده دائما يعمد إلى تقديم إشارات جغرافية تعمل على تنشيط تصورات القارئ، بحيث يكون الفضاء الجغرافي الذي يتحدد من خلاله حيز الرحلة.

لقد أولى الرحالون البيئة المكانية اهتماما كبيرا ووصفوا الطبيعة الجغرافية التي تجري فيها الأحداث، وقدموا المكان من خلال تجاربهم الذاتية ورؤيتهم النافذة في أعماق المكان، فالأماكن متشابهة مثل: مكة والمدينة المنورة، لكنّ التصوير يختلف من رحالة إلىآخر ويعدّ "أبو حامد الغرناطي"واحدا من الر ّحالة الذين زاروا بيئات مكانية مختلفة ،تنوعت فيها صورة البشر وتعددت دياناتهم واتجاهاتهم الفكرية، فلم يغفل الأهمية التي يضفيها المكان ومن الأمكنة التي وصفها "كنيسة القليس" حين قال: "وهي كنيسة بناها أبرهة بصنعاء، وأراد أن يصرف إليها حجّ

[1]– لسان الدين بن الخطيب: خطرة الطيف -رحلات في المغرب والأندلس- تح: أحمد مختار العبادي، المؤسسة العربية للدراسات والآفاق، بيروت، ط1، 2003، ص 117.

العرب ونقل إليها الر ّخام المجز ّع والحجارة المنقوشة بالذهب من قصر بلقيس، وكان منها على فرسخ، وكان أراد أن يرفع من بنائها حتى ّ يشرف منها على عدن"[1] .

إنّ من وظائف الوصف رسم وتشخيص المكان وتوضيح معالمه حتى يتيح للقارئ أن يتخيله وكأنّه يراه فالأماكن في الرحلة موجودة على أرض الواقع وليست متخيلة من ذهن الرحالة،وهذا ما زاد الوصف مصداقية والمكان له حضور خاص ومميز في المتن الرحلي ، وكيف لايكون ذلك والرحالة أساسا كان سفره من أجل اكتشاف هذا المكان الذي يمثل بالنسبة له (آخرا) مجهولا يغري بالخوض في خباياه و مكنوناته ، ولا يرضي فضول الرحالة إلا إذا غاص في تفاصيله وأجزائه ، لينقل لنا صورته النهائية التي تشكلت في ذهنه من خلال المعاينة المباشرة ، عادة ،والتي لاتخلو من الرؤية الذاتية للرحالة ،خاصة إذا ماتعلق الأمر بالمكان الديني أو التاريخي والقومي.

و أمثلة وصف المكان هذا النص ل"ابن بطوطة" حيث يصف القسطنطينية بقوله:"وهي متناهية في الكبر، منقسمة قسمين، بينهما نهر عظيم المد والجزر، على شكل وادي سلا من بلاد المغرب"[2]إنّ وصف "ابن بطوطة" لمدينة القسطنطنية مشحون بدلالات العصر الذي ينتمي إليه وبما أنّ الأمكن التي يسردها الر ّحالة هي من أرض الواقع، فالمكان يعبر ّ عن الفئات الاجتماعية ومستوياتها وامتزاجها ببعضها البعض، و ورود الأمكنة في الرحلة يخلق فضاء واقعيا يجعل الر ّحالة يتفاعل مع الأحداث معرفيا وجماليا ليطبع وصف هذه الأماكن بلمسة جمالية تزيد من جمال ومصداقية الرحلة.

أما "المسعودي" فقد اعتمد على فكر المدن القائم ذكرها في القرآن الكريم، ومنها وصفه مدينة سبأ بقوله: "وذكر أصحاب التاريخ القديم أن أرض سبأ كانت من أخصب أرض اليمن ، وأثراها ، ،وأغدقها وأكثرها جنانا

---

[1]– ابو حامد عبد الرحيم الأندلسي الغرناطي: تحفة الألباب ونخبة الإعجاب، مرجع سبق ذكره، ص 64.

[2]– ابن بطوطة، رحلة ابن بطوطة تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، ج1، تح: محمد عبد المنعم العريان، دار احياء العلوم، بيروت، لبنان، ط1، 1987، ص 350.

وغيطانا وأفسحها مروجا ، مع بنيان حسن و شجر مصفوف ومساكب للماء متكاثفة وأنهار متفرقة "[1]، من خلال وصفه نرى أن بلاد سبأ من أكثر البلدان التي خصها الله سبحانه بالخيرات.

3- وصف الزمن

إنّ وصف الزمن هو محاولة القبض عليه ضمن الألفاظ والكلمات ضمن إطار معين[2]، فوصف الزمن هو تصوير لحقبة زمنية ما أو مرحلة عمرية كالطفولة والشباب أو الشيخوخة فبمجرد قراءة صفحة من الكتاب حتى يستحضر القارئ الزمن الذي قيلت فيه، وكما يستعمل الواصف الأماكن لسيرورة الأحداث وإبراز جوانب الشخصيات كذلك يلعب الزمن دورا مهما في الرحلة فالزمن والمكان وجهان لعملة واحدة.

ومن أمثلة وصف الزمن المثال السابق الذي أوردناه في هذه الدراسة، والذي يصف فيه الرحالة "ابن فضلان" فصل الشتاء في بلاد الصقالبة من خلال مظاهره المختلفة[3].

4- وصف الحيوان والنبات:

بما أنّ الرحلة تعد نوعا أدبيا يختلف عن باقي الأنواع الأدبية الأخرى؛ إذ يكثر فيه الوصف: وصف الإنسان والأماكن، والزمن نجد أيضا وصف الحيوان والبنات، فالرّحلة بمثابة الشريط الوثائقي الذي لا يغفل شيئا إلاّ وذكره، فيصف لنا الرّحالة الأشياء والحيوانات التي يجد فيها غرابة والتي لا يراها في بلده فيطلق العنان لكلماته وتعبيراته ويصورها عن طريق الوصف، نجد على سبيل المثال وصف "ابن بطوطة" لحيوان الكركدن فقال: "وصورته أنّه

---

[1]–أبو الحسن علي المسعودي :مروج الذهب و معادن الجوهر ، راجعه:كمال حسن مرعي ،المكتبة العصرية ،بيروت ،ط1 ،2005 ،ص 139.

[2]–ينظر فوزية قفصي: شعرية الوصف في أدب الرحلة العربي القديم – رحلة ابن بطوطة أنموذجا- مرجع سابق، ص 165.

[3]–ينظر: أحمد بن فضلان: رسالة ابن فضلان، ص 85.

حيوان أسود اللون عظيم الجرم، رأسه كبير متفاوت الضخامة، وهو دون الفيل ورأسه أكبر من رأس الفيل بأضعاف وله قرن واحد بين عينيه، طوله نحو ثلاث أذرع وعرضه نحو شبر"[1]

وبهذا الوصف الدقيق يستحضر الرحالة الحيوان في مخيلة القارئ، ومنها أيضا ما هو خرافي كطائر الرخ "إنّ الذي تخيلناه جبلا و الرخ وإن رآنا أهلكنا وبيننا وبينه إذاك أقل من عشرة أميال ثم إنّ الله منّ علينا بريح طيبة صرفتنا عن صوبه"[2] فقد استعمل الجانب الخيالي في رحلته، وأضفى عليها أسلوبا جديدا مختلفا عن باقي الرحلات فأكسبها بذلك طابعا وبصمة مختلفة، بالإضافة إلىوصف الحيوان و جدنا وصف النبات.

إنّ وصف الرّحالة للنبات يعتمد على الوصف الدقيق من لون، بذور وطول وأوراق، ولقد اهتم الرّحالة بوصف النباتات لم يروها في بيئتهم مثل وصف "ابن بطوطة" لنبات النارجيل:" وهو جوز الهند، وهذا الشجر من أغرب الأشجار وأعجبها أمرا، وشجره شبه شجر النخل،لا فرق بينهما إلاّ أنّ هذه تثمر تمرا، وتلك تثمر جوزا، وجوزها يشبه رأس ابن آدم لأنّ فيها شبه العينين والفم وداخلها شبه دماغ وعليها شبه الشعر"[3]

اهتم "ابن بطوطة" بالشكل الخارجي لفاكهة جوز الهند حيث شبهها برأس الإنسان، فهو لم يرى هذه الفاكهة في بلاده لهذا أعجب بها ووصفها وصفا دقيقا من شكل ولون وشبهها بشجرة النخيل.

إن الوصف في الرحلة العربية القديمة قد اتخذ أشكالا عدة ،من وصف للإنسان إلى وصف كل ما يحيط به من أشياء استرعت انتباه الرحالة ،فاهتم بتصوير تفاصيلها و جزئياتها ونقلها للمتلقي ، معتمدا في ذلك على ثنائية الصورة والتخييل .

---

[1]—ابن بطوطة: رحلة ابن بطوطة تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، مرجع سابق، ص 396.

[2]—المرجع نفسه، ص 449.

[3]—المرجع نفسه، ص 264.

الفصل الثاني

شعرية الوصف في رحلة ابن جبير

أولا : حول الرحلة والرحالة

1 - التعريف بالكاتب:

هو أبو الحسين محمد بن أحمد بن جبير بن سعيد بن محمد بن مروان بن عبد السلام بن جبير الكناني الداخل إلى الأندلس مع بلج القشيري سنة 113هـ/ 731م. ولد "ابن جبير" في بلنسية سنة 540هـ/1445م وقرأ على يد أبيه ومشايخ بلده، وتقدم في صنع الشعر والنثر، وكان من علماء الأندلس في الفقه والحديث قال عنه ابن الخطيب "كان أديبا بارعا، شاعرا مجيدا، ..... النفس، كريم الأخلاق"[1].

كتب "ابن جبير" عن السيد أبي سعيد بن عبد المؤمن الموحدي والي غرناطة. وتذكر بعض المصادر أنه استدعاه ليكتب عنه كتابا وهو على شرابه، فمد إليه بكأس، فأظهر الانقباض لأنه لم يشرب الخمر قط، فأقسم السيد ليشربن منها سبعا، ففعل ذلك مرغما، فملأ له الأمير الكأس دنانير سبع مرات، فحمل المال إلى بيته وقرر أن يكفر عن شربه بالسفر إلى الحج بتلك الأموال.

رحل "ابن جبير" إلى المشرق ثلاث مرات، أولها سنة 578هـ/1182م، وفيها دون رحلته المعروفة، توفي "ابن جبير" في الإسكندرية في رحلته الثالثة سنة 614هـ/1217م[2].

2 مؤلفاته:

لم يدون سوى رحلته الأولى إذ ليس بأيدينا معلومات كافية عن رحلتيه الآخريتين إلا النزر اليسير المبعثر في طيات الكتب المترجمة له، كما أن كل من ترجم له ذكر أسماء مختلفة لرحلته وهي: "تذكرة بالأخبار عن اتفاق

---

[1]-علي إبراهيم الكرديأدب الرِّحل في المغرب والأندلس، منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب، وزارة الثقافة، دمشق، 2013، ص 32، 33.

[2]- ينظر المرجع نفسه، ص 33.

الأسفار" و"رحلة الكناني"و"كتاب اعتبار الناس في ذكر الآثار القديمة والمناسك"[1]).

3- التعريف بالرحلة:

أ- تسميتها: ذكر حاجي خليفة في كشف الظنون أن: اسم رحلة ابن جبير (رحلة الكناني) وتبعه المستشرق كارتشوفسكي،و الأرجح أن للرحلة اسمين كغيرها من الرحل، الأول: (رحلة ابن جبير)، وهذا العنوان ورد في أول المخطوط الوحيد للرحلة،و جاء في خاتمته أن اسمها (اعتبار الناسك في ذكر الآثار الكريمة والمناسك) ولكن هذا العنوان هو اسم لكتاب آخر ألفه ابن جبير وذكره ابن عبد الملك المراكشي، ضمن مؤلفات ابن جبير أما الاسم الثاني للرحلة فهو: (تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار)، وهو على الأرجح الاسم الصحيح للرحلة[2].

ب- سبب القايام بها: كان السبب في قيام "ابن جبير" برحلته الأولى (رحلة ابن جبير) كما ورد في كثير من المراجع أنه كتب في أول أمره عن السيد أبي سعيد بن المؤمن، صاحب غرناطة، فاستدعاه لأن يكتب عنه كتابا، وهو على شرابه "فمد يده إليه بكأس فأظهر الانقباض وقال: يا سيدي ما شربتها قط، فقال: والله لتشربن منها سبعا، فلما رأى العزيمة شرب سبعة كؤوس فملأ له السيد الكأس من دنانير سبع مرات، وصب ذلك في حجره فحمله إلى منزله وأضمر أن يجعل كفارة شربه الحج بتلك الدنانير، ثم رغب إلى السيد وأعلمه أنه له حلف بأيمان لا خروج له عنها أنه يحج في تلك السنة، فأسعفه وباع ملكا له تزود به وأنفق تلك الدنانير في سبيل[3].

وبهذا نجد أن سبب الرحلة ما هي إلا كفارة لشربه للخمر ، تعبيرا عن ندمه وتكفيرا عن ذنبه.

ج- خط سيرها: إذا ما تتبعنا رحلة "ابن جبير" نجده قد دونها على شكل مذكرات بدأها كما جاء في متن

---

[1] عواطف محمد يوسف النواب: الرحلات المغربية والأندلسية مرجع من مصادر تاريخ الحجاز في القرنين السابع والثامن الهجريين، مرجع سبق ذكره، ص 102.

[2] ينظر: علي إبراهيم الكردي: أدب الرحل في المغرب والأندلس، مرجع سابق، ص 33.

[3] أحمد رمضان أحمد: الرحلة والرحالة المسلمون، مرجع سبق ذكره، ص 329.

الرحلـة: "خـرج ابـن جبـير مـن غرناطـة يـوم الخمـيس 8 شـوال سـنة 578هـ/3 فبرايـر 1183م، ووصـل إلى الإسكندرية، ثم اتجها جنوبا إلى القاهرة، فقوص، وانتهى إلى عيداب على ساحل البحر الأحمر، ومنها قطع البحر إلى جدة في طريقه على مكة والمدينة. وبعد تأديته فريضة الحج اجتاز الطريق النجدي إلى الكوفة، وزار بغداد والموصل، وعاد عن طريق سورية فمر بحلب وحماة، وحمص و.... ودمشق وانتهى إلى عكا، فاستقل أحد المراكب الجنوبية عائدا إلى بلده، فمر بصقلية، ووصل إلى غرناطة في 8 محرم من سنة 581هـ/ 1185م"[1] مستغرقا في ذلك حوالي ثلاث سنوات .

هـ- محتوى الرحلة وأهميتها: ترك "ابن جبير" رحلة مهمة ذات لغة أدبية مميزةغير معهودة؛ لذلك وصفه كراتشوفسكي بأنه: "رفع الصياغة الأدبية إلى درجة عالية في أدب الرحلات، ولا غرابة في هذا إذ ينتمي هو وأبوه إلى طبقة الكتاب والأدباء من رجال الدواوين المثقفين"[2].

ولاشك في أن هذه الرحلة: "تمثل أهمية قصوى في تصوير حياة ذلك العصر فهي تقدم وصفا حيا لمصر والشام، عندما بدأت فيهما حركة التحرير الإسلامية ضد الصليبيين بزعامة نور الذين وصلاح الدين، وللرحلة قيمة فريدة فيما يتعلق بتصويرها لحياة مسلمي صقلية"[3]. لقد أخذ ابن جبير في التعريف بتلك الحركة الإسلاميةالتي كانت ضد الصليبيين مصورا ما جرى في تلك الفترة الزمنية.

وصف ابن "جبير" في رحلته أدق التفاصيل في حياة الناس الاجتماعية آنذاك، فقد رصد صورا متعددة من الحياة الاجتماعية تشمل بعض مناسبات القوم وأخلاقهم وعاداتهم وتقاليدهم، وهي في أغلبها تغاير ما ألفه

---

(1)- على علي إبراهيم الكردي: أدب الرحل في المغرب والأندلس، مرجع ساق، ص 33-34.

(2)- أغناطيوس كراتشكو فسكي: تاريخ الأدب الجغرافي العربي، مرجع سابق، ص 299.

(3)- المرجع نفسه،301.

بالمغرب الإسلامي، فقد أعجب باحتفال الناس بعدد من المناسبات الإسلامية مثل ليلة النصف من شعبان وليلة السابع والعشرين من رمضان.

وامتاز أيضا بذكر التفاصيل البحرية، وتصوير هول مفاجأتها في أثناء رحلته، يقول "حسين مؤنس": "لو درسنا كلام أين جبير في البحر والسفن، وأوصافه لما رأى وعاين فيه، وعليها لكانت من ذلك رسالة غاية في الأهمية، عن الملاحة في البحرين الأبيض والأحمر في القرن السادس الهجري /الثاني عشر الميلادي "[1].

ويسمى "حسين مؤنس" الرحلة بالكنز الحافل بالمعلومات، لدقة وصف "ابن جبير" وصدقه وملاحظاته القوية، علاوة على اهتمام "ابن جبير" "بالرسوم الدينية والنواحي الاجتماعية، فإننا نجد مشاعر الحج كلها مدون وصعوبات السفر، ومواكب الأمراء وتجارة مكة، كلها موصوفة وصفا بارعا دقيقا"[2]. وهذا يعبر عن براعة في الكتابة والتأليف.

نجد في الرحلة أيضا القيم الدينية التي اهتم فيها "ابن جبير" بوصف المقدسات الإسلامية وتوقف طويلا عند المساجد ، وأحصى عددا كبيرا منها، وأبدى اهتماما ملحوظا بالمسجد الأموي بدمشق، لما لها من قيمة فنية مهمة من الجانب المعماري، إذ يظهر "ابن جبير وصفا" دقيقا لفن البناء والعمران في المدن التي زارها.

كما عملت الرحلة أيضا على إلقاء الضوء على النشاط الاقتصادي في زمن "ابن جبير "، لاسيما التجاري في بلاد الشام ولم يكن تناوله قاصرا على القوى الإسلامية فقط بل إنه امتد ليشمل القوى الصليبية وعلاقاتها بالمسلمين على المستوى التجاري.

---

[1]-حسين مؤنس: تاريخ الجغرافية والجغرافيين في بلاد الأندلس، مجمع اللغة العربية، ط2 ، القاهرة، 1986 ص 442.

[2]- نقولا زيادة: الجغرافيا والرحلات عند العرب، بيروت، مكتبة المدرسة ودار الكتاب اللبناني، 1962، ص 161.

وهكذا احتوت رحلة "ابن جبير" على تناول مهم لجميع الجوانب المتصلة بحياة بلاد الشام، أيضا وصوله بأدب الرحلة إلى قريب من دورته، وأضاف إلى فن الرحلة صفحات من أجل ما فيها وأغزرها مادة، وأقربها إلى روح العلم وأصدقها.

ثانيا-الأشكال البلاغية للوصف في الرحلة:

تعدد الوصف في رحلة "ابن جبير" متخذا أشكالا مختلفة باختلاف الشيء الموصوف من خلال المشاهد التي عاينها أو سمع منها ، من مدن ومساجد وأطعمة ومرافق عامة وشخصيات ، وغير ذلك من الأشياء والتي يمكن تصنيفها حسب ما يلي:

1-وصف الأشخاص:عاداتهم وتقاليدهم:

وصف "ابن جبير" الأشخاص ورصد مختلف خصوصياتهم بكل أجزائها وتفاصيلها ، فتتبع حركاتهم وعاداتهم في المأكل والملبس، ووصف تقاليد الشعوب من زواج و أعياد وجنائز وطقوس دينية واجتماعية، ولم يقتصر وصفه على الجوانب المادية بل تعداها إلى وصف جوانب أخرى، مثل طريقة التفكير والمشاعر والأحاسيس والعواطف والأخلاق ، فجاء وصفه على النحو التالي:

أ-وصف الشخصيات : يعتبر البطل "صلاح الدين الأيوبي" من أكثر الشخصيات التي اهتم "ابن جبير" بوصفها ،حيث نجده يستحضر أعماله ومناقبه في مواقع عديدة من الرحلة ،يقول: "ومن مفاخر هذا السلطان المزلقة من الله تعالى وآثاره التي أبقاها ذكرا جميلا للدين والدنيا، إزالته رسم المكس المضروب وظيفة على الحجاج مدة دولة العبيديين (...) ومن عدل هذا السلطان وتأمينه للسبل أن الناس في بلاده لا يخلعون لباس الليل تصرفا فيما يعنيهم، ولا يستشعرون لسواده هيبة تثنيهم"[1]،والملاحظ على هذا الوصف أنه لم يلتفت إلى الجوانب الجسدية والمادية بل تجاوزه إلى الجوانب المعنوية الخلقية،فذكر لنا عظمة هذا البطل وعدله، و ما الأعمال التي قام بها تسهيلا لعبور الحجاج وتأمينه للطرق إلا خير دليل على صدق هذا الوصف ،ويواصل "ابن جبير" أسلوبه هذا في وصف الشخصيات التي اختارها بتسليط الضوء على أفعالها دون صفاتها الجسدية، ومن ذلك وصفه للملكة

[1]-ابن جبير: رحلة ابن جبير، دار القصبة للنشر، الجزائر،دط،2001،ص25.

"خاتون" بنت الأمير مسعود"، وخاتون هذه أعظم الخواتين قدرا، بسبب سعة مملكة أبيها (...) ولخاتون هذه الأفعال من البر كثيرة في طريق الحاج: منها سقي الماء للسبيل، عينت لذلك نحو الثلاثين ناضحة، ومثلها للزاد ، واستجلت لما تختص به من الكسرة والأزودة وغير ذلك نحو المائة بعيد، وأمورها يطول وصفها وسنها نحو خمسة وعشرين عاما"[1].

وعلى العموم يتميز وصف "ابن جبير" للشخصيات التي اختارها –عادة- باتباع الخطوات التالية:

-ذكر اسم الشخصية ونسبها.

-إطلاق الوصف المناسب لها: ويكون في أغلب الأحيان وصفا معنويا.

-تعليل سبب اختيار هذا الوصف، أو المجموعة من الأوصاف.

-الاستشهاد بأعمال وأفعال هذه الشخصية تصديقا لهذا الوصف.

ومن المرات القليلة التي تعرض فيها ابن جبير إلى الأوصاف الجسدية والمادية بشيء من الدقة والتفصيل وصفه لأحد الخلفاء "وهو أبو العباس أحمد الناصر لدين الله بن المستضيء بنور الله محمد الحسن بن المستنجد بالله أبي المظفر يوسف(...)وهو في فتاء من سنة، أشقر اللحية صغيرها كما اجتمع بها وجهه، حسن الشكل ، جميل المنظر ، ابيض اللون ، معتدل القامة ، رائق الرواء، سنه نحو الخمس وعشرين سنة،لابسا ثوبا أبيض شبه القباء برسوم ذهب فيه، وعلى رأسه قلنسوة مذهبة مطوقة بوبر أسود من الأوبار الغالية القيمة المتخذة للباس مما هو كالفنك وأشرف، متعمدا بذلك زي الأتراك تعميه لشأنه،لكن الشمس لا تخفى وإن سترت"[2].

---

[1]-ابن جبير: رحلة ابن جبير، مصدر سابق، ص132

[2]- المصدر نفسه، ص167.

لقد سلك "ابن جبير"طريقا لم يعهده في الوصف ، بالتطرق إلى الجوانب الجسدية المادية للموصوف،بشيء من الدقة والتفصيل، وإذا ما قرأنا العبارة التي ختم بها وصفه فإننا سوف ندرك السبب وراء ذلك، فالخليفة الموصوف شخصية أعجب بها الرحالة، وهي شخصية معروفة ذات نفوذ وشهرة في المجتمع، يخرج الخليفة متخفيا بزي الأتراك ظنا منه أن لا أحد سيتعرف عليه ،لكنه مخطئ في ذلك ، وما وصف "ابن جبير" الدقيق له إلا دليل على ذلك، وربما لو أن هذا الخليفة خرج للناس منكشفا ، لما تعرض له "ابن جبير" بهذا الوصف الخاص.

وعلى العموم فإن ما يمكن ملاحظته على وصف "ابن جبير" للشخصيات أنه يختارها ذات شهرة ونفوذ في المجتمع، فهو لم يتعرض-إلا قليلا- لوصف أشخاص عاديين غير معروفين، كما أنه ركز في وصفه على الجوانب المعنوية للشخصية ، معتمدا المعيار الأخلاقي في الحكم على أفعالها ومدى خدمتها للإسلام والمسلمين، بما في ذلك الشخصيات غير المسلمة كوصفه الملك غليام حاكم "صقلية" الذي عرف حسن معاملته للمسلمين بأرضه واحترامه لشعائرهم الدينية"[1].

ب- وصف القبائل والأقوام: اهتم "ابن جبير" بوصف سكان المدن التي كان له اتصال مباشر معهم،سواء أثناء مروره بها في طريق الرحلة أو أثناء إقامته في مكة لتأدية فرضية الحج. ومن المدن التي مر بها ابن جبير أثناء رحلته "عيذاب" يصف أهلها قائلا:"وهذه الفرقة من السودان المذكورين فرقة أضل من الأنعام سبيلا وأقل عقولا لا دين لهم سوى كلمة التوحيد التي ينطقون بها إظهارا للإسلام، وراء ذلك من مذاهبهم الفاسدة وسيرهم مالا يرضى ولا يحل ، ورجالهم ونساؤهم يتصرفون عراة إلا خرقا يسترون بها عوراتهم ، وأكثرهم لا يسترون ، وبالجملة فهم أمة لا

[1]-ينظر: ابن جبير: رحلة ابن جبير، مصدر سابق، ص244-246.

أخلاق لهم، ولا جناح على لاعنهم"[1]،تدرج "ابن جبير" في وصفه لأهل عيذاب،حيث بدأ بذكرهم وذكر مكان إقامتهم ، ثم أصدر حكما عاما عليهم ووصفهم بالضلال ،بعدها بدأ بالتفصيل في وصفه لمذاهبهم وسلوكاتهم ولباسهم الفاضح ثم عاد مرة أخرى لإصدار حكم نهائي ووصفهم بأن "لا أخلاق لهم" ، وما يلفت الانتباه أنه لم يحاول وصف أجسامهم وبنيتهم الجسدية أو لون بشرتهم تمييزا لهم عن غيرهم، واكتفى بوصف طباعهم وأخلاقهم، وهو ما ينطبق على كل الفرق و القبائل والأقوام التي وصفها "ابن جبير" في رحلته .

يقول في وصفه قبائل السرو اليمنية:" قبائل من اليمن تعرف بالسرو ،وهم أهل جبال حصينة باليمن تعرف بالسو اة (...) والقوم عرب صرحاء،فصحاء جفاة أصحاء،لمتغذهم الرقة الحضرية ولا هذبتهم السير المدنية ولا سددت مقاصدتهم السنن الشعرية،فلا تجد لديهم من أعمال العبادات سوى صدق النية، فهم إذا طافوا بالكعبة المقدسة يتطارحون عليها تطارح البنين على الأم المشفقة لا تدين بجوارها متعلقين باستارها ، فحيثما علقت أيديهم منها تمزق لشدة اجتذابهم لها وانكبابهم عليها "[2]، فبدأ "ابن جبير" وصفه بذكر اسم ومكان وجودها وأعقب ذلك بذكر مجموعة من الصفات الصريحة مستعملا ألفاظا محددة ،حيث أن كل لفظة تحمل معناها دون زيادة أو نقصان (عرب ، صحراء ، فحصاء، جفاة، أصحاء)، وعندما عجزت الألفاظ عن استيعاب وصف سلوكات وطباع هؤلاء القوم، استعان الرحالة بالجمل والعبارات التي أعطت الوصف بعدا آخر أوسع من أن تستوعب الألفاظ المفردة.

و جدير بالذكر أن أوصاف "ابن جبير" إنما كانت مبنية على رؤيته الخاصة وعواطفه الشخصية، فجاءت مصبوغة بكثير من الذاتية وروح الانحياز لأقوام دون غيرها، وقد أثارته طريقة التعامل مع المسلم من غير الجهات

---

[1] ابن جبير: رحلة ابن جبير، مصدر سابق، ص39.

[2] المصدر نفسه، ص30.

الشرقية، وعلى هذا الأساس نجده يختار أوصافه ، يقول في أهل بغداد:" وأما أهلها فلا تكاد تلقى منهم إلا من يتصنع بالتواضع رياء، ويذهب بنفسه عجبا وكبرياء، يزدرون الغرباء، ويظهرون لمن دونهم الأنفة والإباء، ويستصغرون عمن سواهم الأحاديث والأنباء(...) يسحبون أذيالهم أشرا وبطرا ، ولا يغيرون في ذات الله منكرا، يظنون أن أسمى الفخار في سحب الإزار، ولا يعلمون أن فضله ، بمقتضى الحديث المأثور، في النار ،يتبايعون بينهم بالذهب قرضا، وما منهم من يحسن الله فرضا ،فلا نفقة فيها إلا من دينار تقرضه ، على يدي مخسر للميزان تعرضه، ولا تكاد تظفر من خواص أهلها بالورع العفيف"...[1]

لقد استعمل "ابن جبير" عبارات وألفاظا مبنية على المبالغة والحدة فيما يمكن أن نطلق عليه: هجاء عن طريق الوصف، فكان ينسب لهم كل صفة سيئة ، في مقابل ذلك ينفي عنهم أي صفة حسنة،"فهل كان حكمه فيهم صادقا يا ترى ، أو أنه صادر عن حالات فردية أخطأ تخمينه عنها، خصوصا وهو لم يقم فيها إلا فترة وجيزة لم تتجاوز اثني عشر يوما"[2]،ثم نجده في موضع آخر يصف أهل الموصل فيقول:" وأهلها هينون معتدلون ، محبون للغرباء مؤثرون للفقراء، وأهل هذه البلاد من الموصل لديار بكر وديار ربيعة إلى الشام على هذا السبيل من حب الغرباء وإكرام الفقراء، وأهل قراها كذلك، فما يحتاج الفقراء الصعاليك معهم الزاد،لهم في ذلك مقاصد في الكرم مأثورة"[3].يظهر إعجاب "ابن جبير" بأهل الموصل جليا من خلال تلك الصفات التي نسبها إليهم، من كرم وإيثار و اعتدال ، ولم يتوان في التأكيد على هذه الصفات من خلال تكرار بعض الألفاظ و العبارات الدالة عليها، ليصورهم لنا في أحسن صورة عكس الصورة الأولى التي رسمها عن أهل بغداد .

---

[1]—ابن جبير: رحلة ابن جبير، مصدر سابق، ص159.

[2] -حسين محمود حسين: أدب الرحلة عند العرب، مرجع سابق، ص27.

[3]—المرجع نفسه، ص181.

ويمكن القول أن وصف "ابن جبير" للقبائل والأقوام كان نابعا من عاطفتين متناقضتين: الأولى عاطفة حب وإعجاب ، والثانية عاطفة بغض وازدراء من السلوكات التي كان يعانيها فجاءت أوصافه كلها معنوية ولم يتطرق إلى الجوانب الجسدية منها.

ج- وصف العادات والتقاليد: العادات والتقاليد هي تراث الشعوب المختلفة تعكس مشاعرهم وطريقة تفكيرهم وفهمهم للأشياء، كما أنها رابط متين يربط أفراد المجتمع الواحدويميزه عن غيره من المجتمعات ، من هذا المنطلق كان وصف "ابن جبير" للعادات والتقاليد التي استرعت انتباهه بشيء من الإعجاب والتقدير تارة ،وبكثير من الدهشة والاستغراب تارة أخرى.و قد تعرض "ابن جبير" لجوانب عديدة من هذه العادات نلخصها على النحو التالي:

-وصف المعتقدات والطقوس الدينية: اهتم "ابن جبير"-كثيرا-بوصف مناسك الحج وبعض السلوكات التي لها علاقة بالمعتقدات الدينية والطقوس التي رآها غريبة ،ومن ذلك وصفه يوم طواف النساء قائلا : " ولم تبق امرأة بمكة إلا حضرت المسجد الحرام ذلك اليوم (...) وتسلسل النساء بعضهن ببعض وتشابكن حتى تواقعن ، فمن صائحة ومعولة ومكبرة ومهللة (...) وتمادين على ذلك صدرا من النهار ، وأنفسهن في الطواف والحجر وتشفين من تقبيل الحجر واستلام الأركان"[1]. يصور لنا " ابن جبير " مشهد النساء الطائفات وينقل لنا وصفا حيا لمشاعر الشوق والحنين التي تتملكهن وهن يؤدين هذا المنسك العظيم من الحج، وتظهر عظمة هذا اليوم بالنسبة لهؤلاء النساء من خلال الأوصاف التي أطلقها " ابن جبير" والتي تنوعت بين وصف للأعمال والأفعال التي قامت بها النسوة إلى استعمال للنعوت والصفات ، وكلها جاءت لتبين مدى أهمية هذا اليوم وعظمته .

[1]-ابن جبير: رحلة ابن جبير، مصدر سابق، ص94.

وفي موضع آخر يصف صلاة أهل السرو قائلا: " وأما صلاتهم فلم يذكر في مضحكات الأعراب أظرف منها ، وذلك أنهم يستقبلون البيت الكريم فيسجدون دون ركوع وينقرون بالسجود نقرا ، ومنهم من يسجد السجدة الواحدة ومنهم من يسجد اثنتين والثلاث و الأربع ثم يرفعون رؤوسهم من الأرض قليلا وأيديهم مبسوطة عليها ، ويلتفتون يمينا وشمالا التفات المروع ثم يسلمون أو يقومون دون تسليم ولا جلوس للتشهد ، وربما تكلموا في أثناء ذلك ، وربما رفع احدهم رأسه من سجوده إلى صاحبه وصاح به ووصاه بما شاء ثم عاد إلى سجوده ."[1].

لقد مزج " ابن جبير " في وصفه هذا بين السخرية والتعجب ومن الطريقة التي يؤدي بها السرو صلاتهم ، التي تتميز بالسرعة وطريقة السجود الخاصة وغيرها من الأفعال التي لا تتفق مع ما هو معروف في سائر بلاد المسلمين ما يدعوا إلى الدهشة والاستغراب .

- **وصف العادات والتقاليد الاجتماعية:** وصف "ابن جبير" من خلال رحلته ما عاينه من عادات وتقاليد الشعوب التي نزل في بلادها ،من زواج وأعياد وأطعمة وملابس وأحكام وأعراف وجنائز....عكس فيها صورا لأشكال الحضارة في مختلف البلدان التي زارها.

يقول في وصف عادة أهل الشام في السلام ، التي تأخذ هيئة الانحناء ،كما يفعل في الركوع والسجود، "وصفة سلامهم إيماء للركوع أو السجود، فترى الأعناق تتلاعب بين رفع وخفض ، وبسط وقبض، وربما طالت بهم الحالة في ذلك، فواحد ينحط وآخر يقوم، وعمائمهم تهوي بينهم هويا، وهذه الحالة من الانعكاف الركوعي في السلام كنا عهدناه لقينات النساء ،وعند استعراض رقيق الإماء"[2]، ومن خلال وصف "ابن جبير" هذا

[1]- ابن جبير: رحلة ابن جبير، مصدر سابق، ص 91.
[2]-المصدر نفسه، ص221.

وتشبيهه لهيئة السلام بالسجود والركوع نلتمس مدى امتعاضه الشديد من هذه الطريقة ، وكذلك عادة المشي عندهم، حيث يقول:" ومن عجيب حال الصغير عندهم والكبير، بجميع هذه الجهات كلها، أنهم يمشون وأيديهم إلى خلف بالواحدة على الأخرى، ويركعون للسلام على تلك الحالة المشبهة بأحوال العناة مهانة واستكانة"[1].

والملاحظ الاهتمام الكبير الذي أولاه "ابن جبير" بكافة أشكال العادات والتقاليد التي يتشكل منها النسيج الاجتماعي، فنجده "قد حرص على إيراد بعض الجوانب الخاصة بالعادات والتقاليد الاجتماعية ،سواء لدى المسلمين والصليبيين على نحو أدى إلى إثراء رحلته بصورة واضحة "[2]. و من ذلك وصفه لعادات أهل دمشق في تشييع جنائزهم ،حيث يقول: "ولأهل دمشق وغيرها في هذه البلاد في جنائزهم رتبة عجيبة، وذلك أنهم يمشون أمام الجنائز بقراء يقرؤون القران بأصوات شجية، وتلاحين مبكية، تكاد تنخلع لها النفوس شجوا وحنانا،(...)، وجنائزهم يصلى عليها في الجامع قبالة المقصورة ، فلا بد لكل جنازة من الجامع ، فإذا انتهوا إلى بابه قطعوا القراءة"[3].

لم يكتف "ابن جبير" بتصوير تفاصيل هذا البحث الاجتماعي وصور مشاعر الدمشقيين أثناء تشييع مراسم الدفن، فنقل لنا أجواء الحزن والتأثر الشديد المصاحبة لها،فيما يمكن أن نسميه تصويرا للحدث في كل أبعاده المادية والمعنوية والنفسية.

ومن جهة أخرى نجده قد اهتم كثيرا بوصف الجانب الاجتماعي لدى الصليبيين ، ووصف بعض عاداتهم ومنها حفل زفاف عروس صليبية في مدينة صور اللبنانية ،فيقول: " وقد احتفل لذلك جميع النصارى رجالا

---

[1]-ابن جبير: رحلة ابن جبير، مصدر سابق، ،221.

[2]-محمد عبد المؤنس عوض: الجغرافيون والرحالة المسلمون في بلاد الشام زمن الحروب الصليبية ، دار عين للدراسات والبحوث الإسلامية والاجتماعية،ط1،1995،ص305.

[3]-ابن جبير: رحلة ابن جبير، مصدر سابق، ص220.

ونساء، واصطفوا سماطين عند باب العروس المهداة، والبوقات تضرب والمزامير وجميع الآلات اللهوية، حتى خرجت تتهادى بين رجلين بمساكنها من يمين وشمال كأنهما من ذوي أرحامها"[1].

الملاحظ على هذا الوصف هو التدرج المعتمد فيه، حيث بدأه بذكر نوع الحدث الاجتماعي ،ثم قام بتأطيره زمانيا ومكانيا، بعدها بدأ بوصفه من الخارج من خلال سلوكات الأشخاص المحركين له، ثم اتجه إلى التفصيل أكثر بتركيزه على وصف لباس العروس، "وهي في أبهى زي، وافخر لباس، تسحب أذيال الحرير المذهب، سحبا على الهيئة المعهودة من لباسهم ، وعلى رأسها عصابة ذهب قد حفت بشبكة ذهب منسوجة، وعلى لبتها مثل ذلك منتظم، وهي رافلة في حليها وحللها، تمشي فترا في فتر مشي الحمامة أو سير الغمامة"[2] ،ومن خلال هذا الوصف المتدرج لحفل الزفاف عند الصليبيين صور لنا الرحالة هذا الحدث الاجتماعي ، واهتم بنقل أجزائه وجزيئاته، كما اهتم بنقل مشاعر الاحتفال، والفرح التي ميزت الحدث ، فيما يمكن أن نعتبره مشهدا معارضا لمشد تشييع الجنازة الدمشقية؛ فالأول عبر لنا فيه عن مشاعر الحزن والأسى ،والثاني نقل لنا فيه تعابير الفرحو الاحتفال، وان كانت المشاعر في المشهد الأول أكثر تدفقا وغزارة ،نظرا لطبيعة الحدث ، فإن وصف لباس العروس ومشيتها قد زاد مشهد الاحتفال الكثير من الحيوية خاصة عندما أطلق الرحالة العنان لخياله مشبها مشيتها في زيها الخاص بالحمامة تارة وبالغمامة تارة أخرى .

و كما تعرض "ابن جبير" لوصف لباس العروس الصليبية في حفل زفافها ، وهو تقليد يتعلق بالمناسبات الخاصة ، فإنه وصف زي النصرانيات في صقلية في المناسبات العامة كالأعياد وغيرها: " وزي النصرانيات في هذه المدينة زي بنساء المسلمين فصيحات الألسن ملتحفات، متنقبات ،خرجن في هذا العيد المذكور وقد لبسن ثياب

[1]-ابن جبير: رحلة ابن جبير، مصدر سابق، ص229.
[2]-المصدر نفسه ص229.

الحرير المذهب ،والتحفن اللحف الرائقة ،وانتقبن بالنقب الملونة ، وانتعلن الاخفاف المذهبة ، وبررن لكنائسهن أو كنسن حاملات جميع زينة نساء المسلمين من التحلي والتخضب والتعطر ".[1]

وعلى عكس لباس النصرانيات الذي تعرض له الرحالة بشيء من التفصيل في الوصف فإنه لم يشر إلى وصف لباس المسلمات ما عدا هذا التمثيل الذي ورد في النص السابق ، وقد أشار إلى وصف لباس المسلمين في مواضع أخرى من الرحلة لكن دون إسهاب في الوصف.

وجملة القول: إن وصف "ابن جبير" للأشخاص وعاداتهم وتقاليدهم المختلفة قد سلك طريقا واحدا عنوانه التركيز على الجوانب المعنوية والأخلاقية ، ومن ثم كان اهتمامه بسلوكات الأشخاص والمجتمعات دون الالتفات كثيرا إلى جوانبهم الجسدية والمادية ، فكانت له نظرة خاصة تختلف عن نظرة بقية الرحالة العرب القدامى في وصفهم للأشخاص وعاداتهم وتقاليدهم ، "وقد يكون لتدينه وعمله في الفقه دور في هذه النظرة.[2]

أما المراحل التي اعتمدها في وصفه لهم فقد تميزت بتدرجها في الوصف وتقديم المعلومات عن الموصوف بتقريب صورته شيئا فشيئا.

2 -وصف المكان:

للمكان حضور خاص في رحلة "ابن جبير " فلا تكاد توجد منطقة زارها إلا وقدم وصفا مفصلا لها ولأهم منشآتها ومرافقها ، فقد كان دقيق الملاحظة ذا إحساس عال بالأشياء والأمكنة ، فكان في تصويره لها يضعنا أمام صورة تفصيلية تمتلئ حيوية ، وتأخذنا إلى خارج حدود الزمن ، وقد تعددت اهتمامات الوصف وموضوعاته في

---

[1] - ابن جبير: رحلة ابن جبير، مصدر سابق، ص 48،49.

[2] -رشا الخطيب: صور الآخر في أدب الرحلة الصقلية نموذجا عند ابن حوقل وابن جبير ،منشور في مجلة العرب (الرياض) ج7و8 السنة 43 ، محرم وصفر 1430هـ /كانون2 وشباط 2009، ص 13.

رحلة "ابن جبير" التي وصلت إلى أماكن كثيرة ومتنوعة من حيث الطبائع والخصائص، فقد قصد الجزيرة العربية وبلاد مصر والشام والعراق ومدن الأندلس ...وبناء على هذا التنوع المكاني نجد ثلاثة أنواع تتلخص في المكان الديني والتاريخي والجغرافي .

أ-المكان الديني: لقد كان العامل الديني السبب الرئيسي لقيام "ابن جبير" برحلته ، ومغادرته مسقط رأسه للوقوف على أهم أمكنة انبعاث الرسالة المحمدية ، ووصف ما تتضمنه من أماكن مقدسة ، ووصفها بشكل ينم عن روح دينية تتطلع لإشباع حسها الإيماني . ومن هذه المعالم الدينية المسجد الحرام في مكة المكرمة الذي وصفه قائلا: "البيت المكرم له أربعة أركان ، وهو قريب من التربيع (...) وهو من الحجر الأسود ، إلى الركن اليماني ، تسع وعشرون ذراعا وسائر الجوانب ثمان وعشرون (...) فأول أركانه الركن الذي فيه الحجر الأسود ، ومنه ابتداع الطواف (...) وداخل البيت الكريم مفروش بالرخام المجزع وحيطانه كلها رخام مجزع ، قد قام على ثلاثة أعمدة من الساج مفرطة الطول ، وبين كل عمود وعمود أربع خطا (...) ودائر البيت كله من نصفه الأعلى مطلي بالفضة المذهبة المستحسنة يخيل للناظر إليها أنها صفيحة ذهب لغلظتها"[1].

وقد بدأ وصفه بالاستهلال بذكر فضائل المكان ثم أخذ وصفه يأخذ منحى متدرجا متجها من الخارج إلى الداخل مع إبراز ما لتلك الأجزاء من دلالات ووظائف ، ليصل أخيرا إلى الصورة النهائية التي ارتسمت في ذهنه عندما يشبه ظاهر البيت الأعلى بصفيحة ذهب نظرا لغلظته .

"لقد أبدى "ابن جبير"في أوصافه حسا تصويريا متقنا (...)وهذا ما نراه عند حديثه عن الأماكن ذات الطابع الديني ، حيث يتضخم الشعور بالإعجاب والدهشة ويبرز بمظهر زخرفي يضاهي روعة المكان"[2] فترتسم

---

[1]- ابن جبير: رحلة ابن جبير، مصدر سابق، ص48،49.

[2]- بلال سالم الهروط: صورة الآخر في أدب الرحلات الأندلسية رسالة دكتوراه في اللغة العربية وآدابها ، جامعة مؤتة، الأردن ،2008، ص138.

لوحة تشع بالألوان ، المملوءة حيوية ورونقا ، تتجلى فيها روحه المأسورة بالسحر المنبعث من عبق المكان ، فتسمو عاليا نحو السماء منتزعة مواد صورته البصرية ، وهذا ما نراه في تصويره لبعض أجزاء البيت العتيق: " وتحت كل صلة منها ثقب مستدير في دور الشبر منفوذ يخترقه الهواء يضرب فيه شعاع الشمس أو القمر فيولح كأنها أقمار مستديرة .[1] وغير بعيد عن أرض الحجاز حيث مبعث الرسالة المحمدية ، يأخذ المكان الديني بعدا آخر من القداسة والسحر ، ويلقى بطلاله على أوصاف "ابن جبير" له ، إذ نراه يصف الجامع الأموي في دمشق فيقول: "وكان هذا الجامع المبارك ، ظاهرا وباطنا ، منزلا كله بالفصوص المذهنة مزخرف بأربع زخاريف البناء المعجز الصنعة (...) وقد قامت في وسطه محاريب صغار متصلة بجدارة وتحفها سريريات مفتولات فتل الأسورة وكأنها مخروطة ، لم ير شيء أجمل منها ، وبعضها حمر كأنها مرجان ، فشأن قبلة هذا الجامع المبارك مع ما يتصل من قبابه الثلاث ، وإشراق شمسياته المذهبة الملونة عليه ، واتصال شعاع الشمس بها و انعكاسهإلى كل لون منها ، حتى ترتمي الأبصال منه أشعة ملونة ."[2]

وشكلت القبور والمزارات الدينية الإسلامية جزء من "المنظومة المكانية" ذات الطابع الديني عند"ابن جبير" كما أن المكان الديني في رحلته كان قد تجاوز حدود المشرق الإسلامي إلى مكان آخر كان في وقت مضى تحت الحكم الإسلامي ، ونقصد به الأندلس التي سيطر الصليبيون على أكثر مدنها ، والذي يمثل حسبه النموذج الأرقى للحضارة الإنسانية، فتراه يختارها موضوعا هاما لوصفه ويغدق عليها أفضل الأوصاف، ومن ذلك ما أورده عن مدينة "ثرمة" المعروفة عند النصارى "ببلامة" ، و بعد أن وصفها وتمعن في وصفها،وأشاد بالتعايش بين سكانها المسلمين والنصارى،. اتجه إلى آثارها الإسلامية وعني بوصفها أحسن الأوصاف مبرزا في الوقت ذاته، ما أثارته في نفسه من مشاعر الجمال والقداسة ،يقول:"فانتهينا إلى قصر سعيد، وهو على فرسخ من المدينة (...) وهذا

---

[1]- ابن جبير: رحلة ابن جبير، مصدر سابق، ص62.

[2]–المصدر نفسه، ص 198.

القصر على ساحل البحر مشيد البناء عتيق قديم الوضع من عهد ملكة المسلمين للجزيرة ، لم يزل ولا يزال، بفضل الله مسكنا للعباد منهم،و حوله قبور كثيرة للمسلمين: أهل الزهادة والورع وهو موصوف بالفضل والبركة مقصود من كل مكان (...) وفي أعلاه مسجد من أحسن مساجد الدنيا بهاء،مستطيل ذو حنايا مستطيلة مفروش بحصر نظيفة لم ير أحسن منها صنعة (...) فبتنا في هذا المسجد أحسن مبيت وأطيبه ، وسمعنا الأذان وكنا قد طال عهدنا بسماعه"[1]،فالأماكن المذكورة في هذا الوصف ما هي إلا رموز للحضارة والوجود الإسلامي في المنطقة، وهذه الرموز موصوفة بالفضل والبركة والجمال وهي مبعث الراحة النفسية والاستقرار الوجداني الذي افتقده الرحالة من خلال إقامته الطويلة بعيدا عن وطنه الأم وبعيدا عن المكان الديني الذي يعتبر مواطنه الروحي.

ولم تقتصر كتب الرحلات –عموما- "في تناولها للمكان على المقدس منه، بل نجد أحيانا في تناولنا حديثا عن أماكن تفيض بما يخالف إنسانية الإنسان وأعرافه الدينية والاجتماعية، وهو ما يمكن أن نسميه بالمكان المدنس"[2].

وبالنسبة " لابن جبير" فقد تمثل له المكان المدنس غالبا فيما استحوذ عليه الصليبيون من أراضي المسلمين وأملاكهم التي تم تدنيسها بكفرهم ، أو ما كان موطنا لغير المسلمين أو كما يسميهم " ابن جبير " أحيانا كفارا ، لذا كانت أوصافه تعبيرا لما يختلج صدره من مشاعر الحزن والكره والسخط وأحيانا الأمل بعودتها إلى حكم الإسلام والمسلمين . يقول في وصف مدينة عكا: " هي قاعدة مدن الإفرنج بالشام ، سككها وشوارعها تغص بالزحام ، وتضيق فيها مواطئ الأقدام ، تستعر كفرا وطغيانا ، وتفور خنازير وصلبانا ، زفرة قذرة ، مملوءة كلها

[1]-ابن جبير: رحلة ابن جبير، مصدر سابق، 248،249.

[2]-بلال سالم الهروط: صورة الآخر في آداب الرحلات الأندلسية،ص66.

رجسا وعذرة . انتزعها الإفرنج من أيدي المسلمين ... فبكى لها الإسلام ملء جفونه ، وكانت أحد شجونه ، فعادت مساجدها كنائس ، وصوامعها مضارب للنواقس"[1].

وعلى هذا النهج يسير " ابن جبير " في وصفه لبقية الأماكن الدالة على الوجود النصراني ، ومنها مدن صور ومسينة وصقلية ، وغيرها من الأماكن الموصوفة بالكفر والطغيان وكل الصفات القبيحة باعتبارها تمثل المكان المدنس .

وقد أتى " ابن جبير " على ذكر الكنيسة في مواضع عدة من رحلته ، فوصف كنيسة مريم في دمشق قائلا: " وفي داخل البلد كنيسة لها عند الروم شان عظيم ، تعرف بكنيسة مريم ، ليس بعد المقدس عندهم أفضل منها ، وهي حفيلة البناء ، تتضمن من التصاوير أمرا عجبا تبهت الأفكار ، وتستوقف الأبصار ".[2] ، والملاحظ على هذا الوصف للكنيسة انه اقل حدة من أوصافه السابقة للمدن الصليبية ، وقد نجده في موضع آخر يقف موقف المبهور المعجب بجمال هذا المكان في موقف إنساني بعيد عن التعصب والنظرة الدونية للآخر ، يقول في وصفه لكنيسة الإنطاكي: " ومن أعجب ما شاهدناه بها من أمور الكفران كنيسة تعرف بكنيسة الإنطاكي أبصرناها يوم الميلاد (...) فأبصرنا من بنيانها مرأى يعجز الوصف عنه ، ويقع القطع بأنه أعجب مصانع الدنيا المزخرفة جدرها الداخلة ذهب كلها ، وفيها من الألواح الرخام الملون منا لم يرى مثله قط ، قد رصعت كلها بفصوص الذهب وكللت بأشجار الفصوص الخضر ونظم أعلاها بالشمسيات المذهبات من الزجاج ، فتخطف الأبصار بساطع شعاعها ، وتحدث في النفوس فتنة نعوذ بالله منها (...) شرفها الله عن قريب بالآذان ، بلطفه وكريم نصنعه."[3]

---

[1]- ابن جبير: رحلة ابن جبير، مصدر سابق، ص 227.

[2]-المصدر نفسه، ص 210.

[3]- المصدر نفسه ص 251، 252.

فرغم وصف هذه الكنيسة بالكفر إلا أن الرحالة أغدق عليها بمختلف أوصاف الحسن والجمال والإتقان في البناء ،حتى أنه أوجس خيفة من الوقوع في فتنتها ،ولا نعرف إن كان يقصد بالفتنة مجرد تشبيها بالمرأة في جمالها أم أنه كان يخشى على نفسه من أن تأسره إلى المقام بها من شدة جمالها فتتعلق بها روحه وقد يفتن ،في دينه ولم يخف في الأخير أمنيته الخاصة أن تعود من أملاك المسلمين لأن الإسلام في نظر " ابن جبير " شرف وتقديس وما دونه من الأديان الأخرى كفر وتدنيس ، وحتى ،" وان كان لنا أن نعلق على عقلية ابن جبير كمسلم عاصر الحروب الصليبية إبان قسوتها وضراوتها فإننا لا نستطيع إلا أن نقرر أنها عقلية عالمية منصفة لم يعمها التعصب الديني البغيض " [1]. وما الأوصاف السابقة التي أطلقها على بعض المدن النصرانية ، والتي كانت إلى عهد قريب تحت راية الإسلام ، إلا تعبيرا عن رغبة عميقة لكل مسلم غيور على دينه ، وهي المشاعر التي لم يستطع " ابن جبير " كبتها في كثير من الأحيان ، وظهرت جليا في وصفه للمكان الديني بجانبيه المقدس والمدنس .

ب- المكان الجغرافي: عادة ما يصف الرحالة الأمكنة من خلال تجربته الذاتية ورؤيته الخاصة الناتجة عن تفاعله معها ، لذلك نجد المكان واحدا والأحاسيس متعددة ، مع ما ينتج عنها من طرق التصوير والوصف المختلفة ،" إن التصوير المكاني يقوم على بعدين أساسيين الأول منهما دلالي استقرائي (...) والثاني جغرافي يعتمد على وصف المكان لخلق التفاعل بين المتلقي والمكان المقصود ،"[2] . وهنا تبرز دقة وصف الرحالة وقدرته العالية في التصوير وبراعته في الربط بين المكان وساكنيه .

و " ابن جبير " ، بحكم انتمائه جغرافيا إلى بيئة أندلسية خصبة ، ساهمت بشكل كبير في تنامي وإحساسه العميق بوقع المكان ، فأبدي قدرة كبيرة في الوصف الجغرافي الذي يحمل لنا وصفا دقيقا في سياق غني بالمعلومات والمشاهد التي تعامل معها أثناء رحلته، ويظهر ذلك جليا في الوصف التالي للطريق من المدينة إلى العراق ، حينما

---

[1]- احمد رمضان احمد ، الرحلة والرحالة المسلمون ، مرجع سبق ذكره، ص 336.

[2]- بلال سالم الهروط: صورة الآخر في أدب الرحلات الأندلسيين ، مرجع سابق ص 72.

يقول: "وفي ضحوة يوم السبت الثامن لمحرم المذكور ، والحادي والعشرين من شهر ابريل ، كان رحيلنا من المدينة المكرمة إلى العراق (...) واستصبحنا منها الماء لثلاثة أيام ، فنزلنا يوم الاثنين ، ثالث يوم رحيلنا المذكور ، بوادي العروس ، فتزود الناس منها الماء (...) وصعدنا من وادي العروس إلى ارض نجد ، وخلفنا تهامة وراءنا ، و مشينا في بسيطة من الأرض ينحسر الطرف دون أدناها ولا يبلغ مداها ، وتنسمنا نسيم نجد وهواءها المضروب به المثل ، فانتعشت النفوس والأجسام ببرد نسيمه وصحة هوائه."[1]

و من خلال هذا النص السابق تبدو جليا براعة " ابن جبير " في الوصف الجغرافي الدقيق بهذا المكان ، وقد رافق هذا الوصف براعة فنية في التصوير ، فجاء مزيجا ثريا بين العنصرين الجغرافي من جهة والأدبي الغني من جهة ثانية .

ويصف مدينة بغداد بأسلوب يمزج فيه بين الجغرافيا والإحساس بالواقع المكاني فيقول: " هذه المدينة العتيقة، وان لم تزل حضرة الخلافة العباسية ، ومثابة الدعوة الأمامية القرشية الهاشمية ، قد ذهب أكثر رسمها ، ولم يبق منها إلا شهير اسمها وهي بالإضافة إلىما كانت عليه قبل انحناء الحوادث عليها والتفات أعين النوائب إليها كالطلل الدارس ، والأثر الطامس ، أو تمثال الخيال الشاخص ، فلا حسن فيها يستوقف البصر ويستدعي من المستوفر العقلة والنظر إلا دجلتها التي هي بين شرقيها وغربيها منها كالمرآة المجلوة بين صفحتين أو العقد المنتظم بين لبتين ، فهي تردها ولا تضما ، وتتطلع منها في مرآة مقلية لا تهدا (...) سوء معاشرة أهلها يغلب على طبع هوائها ومائها."[2]

---

[1]- ابن جبير: رحلة ابن جبير، مصدر سابق، ص 148 .

[2]-المصدر نفسه، ص 159.

يقدم لنا " ابن جبير "صورة قاتمة لمدينة بغداد ، ويقربها من أذهاننا برسم معالم واقعها المتردي الذي يظهر كالجسد بلا روح ، وهذا الواقع المتردي ألقى بظلاله على مواطن الحسن والجمال في المشهد المكاني ، والأمر نفسه بالنسبة لسلوك أهلها حيث يحصل التأثير والتأثر بين المكان ونازله ،"لقد جاءت هذه الصورة المعتمة لبغداد لأنها كانت تعيش عصرا اتسم بحالات التردي والتداعي على كل الأصعدة ."[1]

وعكس هذه الصورة السوداء التي نقلها " ابن جبير " عن المشهد المكاني في بغداد نجده في موضع آخر يرسم لنا صورة تفيض إحساسا بجمال وروعة المشهد المكاني ، مازجا فيها بين هذه الأحاسيس الفياضة والوصف الجغرافي ، فيقول في وصفه مدينة رأس العين: " هذا الاسم لها من أصدق الصفات،و موضوعها به اشرف الموضوعات، وذلك أن لله تعالى فجر أرضها عيونا وأجراها ماء معينا، فتقسمت مذانب و انسابت جداول تنبسط في مروج خضر، فكأنها سبائك اللجين ممدودة في بساط الزبرجد تحف بها أشجار وبساتين قد انتظمت حافيتها إلى آخر انتهائها من عمارة بطحائها"[2]، ومن خلال هذا الوصف سعى "ابن جبير" إلى رسم صورة من الحسن اللامتناهي لهذه المدينة ، وبدا ظاهرا إعجابه الشديد بهذا المكان فحرص على نقل هذا التفاعل برسم صورة تخيلية لهه ؛ فشبه انسياب الجداول في مروجها الخضراء بسبائك الفضة الخالصة والممتدة في بساط الزربجد،و هي صورة أعطت وصفه بعدا جماليا ، وأثبتت قدرته وبراعته في المزج بين الجغرافيا والإحساس بالوقع المكاني.

وفي وصفه للمدن البحرية يقول في مدينة مسينة من جزيرة صقلية: "هذه المدينة موسم تجار الكفار، ومقصد جواري البحر من جميع الأقطار (....) مستندة إلى جبال قد انتظمت حضيضها وخنادقها ، والبحر يعترض أمامها في الجهة الجنوبية، ومرساها أعجب مراسي البلاد البحرية ، لأن المركب تدنو فيه من البحر حتى

---

[1]- بلال سالم الهروط ، صورة الآخر في أدب الرحلات الأندلسية، مرجع سابق ص 75.

[2]-ابن جبير: رحلة ابن جبير، مصدر سابق، ص179.

تكاد تمسه وتنصب منها إلى البر خشبة يتصرف عليها (...) فتراها مصطفة مع البر اصطياف الجيد في مرابطها واصطلاتها، وذلك لإفراط عمق البحر فيها، وهو زقاق معترض بينها وبين الأرض الكبيرة بمقدار ثلاثة أميال"[1]، فمسينة، باعتبارها مكانا بحريا صورة جغرافية اهتم "ابن جبير" بإبراز معالمها، وتحدث بدقة كبيرة عن أبعادها فقام بتصويرها كما لو كانت لوحة فنية متجانسة الأجزاء.

وجذير بالذكر أن "ابن جبير" قد اهتم كثيرا بوصف الطرق التي سلكها أثناء رحلته ، ومثال ذلك الصورة التي رسمها للطريق الرابط بين الحلة وبغداد ،حيث يقول: "والطريق من الحلة إلى بغداد أحس طريق وأجملها، في بسائط من الأرض وعمائر ، تتصل بها قرى يمينا وشمالا، ويشق هذه البسائط أغصان من ماء الفرات تتسرب بها وتسقيها ، فمحرثها لا حد لاتساعه وانفساحه، فللعين من هذا الطريق مسرح ومشرح وللنفس مراح انبساط وانفساح"[2].

لقد سار "ابن جبير" في تصويره للمكان في بعده الجغرافي على وتائر متعددة من الشعور بالإعجاب ومحاولة انتزا ع مكامن الجمال فيه تارة، إلى رسم صورة سلبية منفرة منه تارة أخرى، فظهرت قدرته على المزج بين الجغرافيا والوقع المكاني وأثر ذلك في نفسية الرحالة والذي انعكس بوضوح على أوصافه .

ج- المكان التاريخي: لقد أسهب الرحالة العرب ، وبخاصة الأندلسيون ، في وصف الأماكن التي زاروها أو أقاموا بها، وصفا دقيقا ومعمقا ، "وفي خضم حديثهم أخذوا من ذاكرة التاريخ كثيرا من الأمكنة التي شكل وجودها سردا ممعن العمق للتاريخ الحضاري لتلك البلدان التي وجدت بها، أو هي أمكنة عفا عليها الدهر ذكرها الرحالة في كتبهم بتفصيلاتها الدقيقة من باب الحفظ التاريخي لتلك الأمكنة"[3].

---

[1]—ابن جبير: رحلة ابن جبير، مصدر سابق، ص243.

[2]-المصدر نفسه، ص156.

[3]-بلال سالم الهروط: صورة الآخر أدب الرحلات الأندلسية، مرجع سابق، ص81.

لتكون بذلك خير شاهد على العصر ومختلف معطياته الاجتماعية والثقافية والاقتصادية والآثار العمرانية.

وقد تضمنت رحلة "ابن جبير" معلومات وفيرة عن الأماكن التي مر بها أو أقام فيها، وما يتعلق بها من مظاهر حضارية، وهو لم يقتصر على وصف الأماكن بل كان يقرنها بأهم الأحداث التاريخية التي مرت بها ، يقول في وصف مدينة الموصل وأسوارها، "هذه المدينة عتيقة ضخمة ،حصينة فخمة، قد طالت صحبتها للزمن فأخذت أهبة استعداد لحوادث الفتن ، قد كانت أبراجها تلتقي انتظاما لقرب مسافة بعضها من بعض، وباطن الداخل منها بيوت ، بعضها على بعض مستديرة بجداره المطيف بالبلد كله، كأنه قد تمكن فتحها فيه لغلط بنيته وسعة وضعه (...) وفي أعلى البلد قلعة عظيمة قد رص بناؤها رصا، ينتظمها سور عتيق البنية مشيد البروج، وتتصل بها دور السلطان "[1].

تظهر مدينة الموصل كما وصفها "ابن جبير" مدينة عتيقة حصينة أسوارها غليظة وبروجها مشيدة، ويبدو أنها على أهبة الاستعداد لصد أي هجوم حربي من الأعداء.

ويصف مدينة عكا قائلا: " هي قاعدة مدن الأفرنج بالشام (...) تستعر كفرا وطغيانا، وتغور خنازير وصلبانا، زفرة قذرة (...) انتزعها الإفرنج من بين أيدي المسلمين في العشر الأول من المائة السادسة ، فبكى لها الإسلام ملء جفونه، وكان أحد شجونه (...) وطهر الله مسجدها الجامع بقعة بقيت بأيدي المسلمين مسجدا صغيرا (...) وعند محاربة قبر صالح النبي ، صلى الله عليه وسلم"[2].

---

[1] - ابن جبير: رحلة ابن جبير، مصدر سابق، ص172.

[2] –المصدر نفسه، ص227.

يصف "ابن جبير" عكا وصفا دقيقا ويقرنها بحدثين تاريخيين الأول هو انتزاعها من حكم المسلمين وتحولها مدينة نصرانية ويصور مشاعر حزن المسلمين لضياعها، والثاني ارتباطها بأحد الأنبياء ففيها قبر النبي صالح عليه السلام ،وبذلك استمدت أهميتها التاريخية والدينية ، ثم

يصف "ابن جبير" مدينة حلب التاريخية مستحضرا المراحل التاريخية التي مرت بها فيقول:" بلدة قدرها خطير ، وذكرها في كل زمان يضير ، خطابها من الملوك كثير، ومحلها من التقديس أثير كم هاجت من كفاح ، وسلت عليها من بيض الصناع، لها قلعة شهيرة الامتناع بائنة الارتفاع، معدومة الشبه والنظير في القلاع ،تنزهت حصانة أن ترام أو تستطاع"[1]، وبعد هذا الوصف المميز والذي يبدي فيه الرحلة إعجابه الشديد بهذه المدينة العريقة ،يقف متعجبا ويقول: "هذه منازلها وديارها ، فأين سكانها قديما وعمارها ؟ وتلك دار مملكتها وفناؤها فأين أمراؤها الحماديون وشعراؤها ؟ أجل ،فنى جميعهم، ولم يأن بعد فناؤها! فيا عجبا للبلاد تبقى وتذهب أملاكها، ويهلكون ولا يقضي هلاكها"[2]، فهذه المدينة العظيمة على ما مر عليها من أحداث وخطوب، فنى أمراؤها وشعراؤها ، الذين فاقت شهرتهم الآفاق، ومازالت هي باقية صامدة بمنازلها وديارها، ومن شدة إعجاب الرحالة وتعجبه من أمرها راح يسأل نفسه مرة ويجيبها مرة أخرى وكأنه فتن بها حد الجنون.

وبالإضافة إلى المدن عني "ابن جبير" بذكر الأمكنة ذات الطابع التاريخي مثل الجسور والمدارس والمستشفيات ومختلف المرافق الأخرى ،وأثناء وصفه لهذه الأماكن وصف حركة البشر فيها فأعطاها بعدا حركيا آخر من خلال ما يضفيه الإنسان من خصوصيات على الحياة العامة فيها، فقد لفت انتباهه ما يقوم به سلطانها "الناصر صلاح الدين الأيوبي" من أعمال خيرية فيقول: "من مفاخر هذا السلطان وآثاره الباقية المنفعة للمسلمين

---

[1]-ابن جبير: رحلة ابن جبير، مصدر سابق، ص185.

[2]-المصدر نفسه، ص 185.

القناطر التي شرع في بنائها بغربي مصر، وعلى مقدار سبعة أميال منها، بعد رصيف ابتدئ به من حيز النيل بإزاء مصر كأنه جبل ممدود على الأرض تسير فيه مقدار ستة أميال حتى يتصل بالقنطرة المذكورة، وهي نحو الأربعين قوسا من اكبر ما يكون من قسي القناطر، والقنطرة متصلة بالصحراء التي يفضي منها إلى الإسكندرية ، له في ذلك تدبير عجيب من تدابير الملوك الحزمة إعدادا لحادثة تطرأ من عدو يدهم جهة ثغر الإسكندرية عند فيض النيل وانغماز الأرض به وامتناع سلوك العساكر بسببه، فأعد ذلك مسكا في كل وقت أن احتيج إلى ذلك"[1].

يصف "ابن جبير" هذه الجسور التي أقامها "صلاح الدين الأيوبي" ويصور ضخامتها وكبر حجمها، كما يذكر موقعها ودروها في صد أي عدوان خارجي، ولا ينسى الإشادة بالحنكة التي يتمتع بها هذا القائد العظيم ، ويقابل بين هذه القناطر ،التي تعتبر بالنسبة له بناء حديثا ،ببناء قديم هو الأهرامات فيقول: "وبمقربة من هذه القناطر المحدثة الأهرام القديمة المعجزة البناء ، الغريبة المنظر، المربعة الشكل،كأنها القباب المضروبة قد قامت في جو السماء، ولاسيما الاثنان منها فإنهما يغض الجو بهما سموا، في سعة الواحد منها من أحد أركانه إلى الركن الثاني ثلاث مئة خطوة وست وستون خطوة ،قد أقيمت من الصخور العظام المنحوتة وركبت تركيبا هائلا بديع الإلصاق دون أن يتخللها ما يعين على إلصاقها محددة الأطراف في رأي العين"[2].

لقد تراوح وصف الرحالة للأهرام بين التصوير الفني والوصف الدقيق لها، لكنه مع ذلك لم يبد تفاعلا مع هذا المعلم التاريخي واكتفى في أحسن الأحوال بتصوير تعجبه واستغرابه للطريقة التي تم بناؤه بها، والحجم الكبير الذي يبلغه.

---

[1]—ابن جبير: رحلة ابن جبير، مصدر سابق، ص22.

[2]-المصدر نفسه، ص22.23.

لقد كان "ابن جبير" كغيره من الرحالة دقيق الملاحظة، ذا إحساس عال بالأمكنة ؛ فكان يصفها وصفا تفصيليا يمتلئ حيوية ، ينقلنا إلى خارج حدود الزمن ويرسم لنا صورا للأمكنة التي زارها ، وقد أضفت خصوصية المكان طابعا خاصا على أوصافه ؛ فتنوعت بين أوصاف غلبت عليها مشاعر القداسة والروحانية، و أوصاف تتبعت مكامن الجمال والحسن فيها إلى أوصاف اهتمت باستنطاق التاريخ الحاضر والماضي.

ثالثا- حدود العلاقة بين الوصف والسرد في الرحلة:

يعتبر الوصف مكونا أساسيا في الخطاب الرحلي عموما، ويحضر السرد إلى جانب الوصف بطريقة تناوبية تجعل كلا منهما مكملا للآخر، "لأن وجود وصف خالص دون سرد قد يبعث الملل في نفس المتلقي، لأن النص سيصبح في هذه الحالة مجرد لوحات متراصة تعرض مشاهد متتالية ومختلفة" [1]

وفي رحلة "ابن جبير"، ورغم الحضور المكثف للوصف على طول خطابها، فإن السرد فيها يبقى مهيمنا، لكنه في الحقيقة لا يخرج عن إطار الوصف، ويمكن توضيح العلاقة بينهما على النحو التالي:

1- الوصف من خلال الفعل:

أ- وصف الشخصية من خلال أفعالها: ويتم ذلك بوصف الأفعال التي تقوم بها الشخصية "بدل التقديم المباشر للصفات المميزة لهذه الشخصية"[2] وبذلك يمكن اعتباره وصفا غير مباشر لها، وهي العملية التي اعتمدها "ابن جبير" كثيرا في رحلته، حيث لا نجده يعمد –إلا قليلا- إلى وصف شخصياته بتقديم صفاتها بطريقة مباشرة.

وقد وصف "ابن جبير" الشخصيات التي شدت انتباهه بأفعالها التي ميزتها عن غيرها من أفراد وجماعات، ومثال ذلك وصفه للمسلمين في دولة "غليام" قائلا: "وأما فتيانه الذين هم عيون دولته وأهل عمالته في ملكه فهم مسلمون، ما منهم إلا من يصوم الأشهر تطوعا وتأجرا، ويتصدق تقربا إلى الله وتزلفا، ويفتك الأسرى ويربي الأصاغر منهم ويزوجهم ويحسن إليهم" [3]

---

[1]– فوزية قفصي، شعرية الوصف في أدب الرحلة- رحلة ابن بطوطة- أنموذجا، مرجع سابق، ص 160.

[2]– المرجع نفسه، ص160.

[3]–ابن جبير: رحلة ابن جبير، مصدر سابق، ص 246.

يصف "ابن جبير" فتيان الملك "غليام" المسلمين، موظفا أفعالا أعطت وصفه حيوية وفاعلية، من مثل: يصوم، يتصدق، يحسن...، ليصور لنا أخلاق وطباع هؤلاء القوم واتصافهم بصفات المسلمين رغم إقامتهم في بلد نصراني تحت حكم صليبي، وهو ما لفت انتباه الرحالة وآثار إعجابه و يبدو ذلك جليا في الوصف السابق.

كما لفت انتباهه أيضا أخلاق أهل بغداد وطباعهم وبعض سلوكاتهم التي أثارت فيه مشاعر الغضب والسخط والازدراء، فانهال عليهم بوابل من الأوصاف السيئة، قائلا: "وأما أهلها فلا تكاد تلقى منهم إلا من يتصنع بالتواضع رياء، ويذهب بنفسه عجبا وكبرياء، يزدرون الغرباء، ويظهرون لمن دونهم الألفة والإباء، ويستصغرون عمن سواهم الأحاديث والأنباء، لا يستكرمون في معمور البسيطة مثوى غير مثواهم، كأنهم لا يعتقدون أن لله بلاء أو عبادا سواهم، يسحبون أذيالهم أشرا وبطرا، ولا يغيرون في ذات الله منكرا، يظنون أن أسنى الفخار في سحب الإزار، ولا يعلمون أن فضله، بمقتضى الحديث المأثور، في النار يتبايعون بينهم بالذهب قرضا، وما منهم من يحسن الله فرضا، فلا نفقة فيها إلا دينار تقرضه، على يدي مخسر للميزان تعرضه (.....) لا يبالون في ذلك بعيب، كأنهم من بقايا قوم شعيب"[1]

وصف "ابن جبير" هذه المرة نابع من إحساس كبير بالغربة في بلد تفاجأ بسلوك أهله و معاملتهم له وللحجاج الآخرين، ما أثار غضبه وسخطه، فترجم ذلك في وصفه هذا موظفا أفعالا تميزت بالحيوية والحدة منها ما جاء مثبتا مثل: يتصنع، يزدرون، يظهرون، يستصغرون، يسحبون، يتبايعون...، ومنها ما جاء منفيا مثل: لا يستكرمون، لا يعتقدون، لا يعلمون، لا يبالون، حيث عمد إلى إثبات الصفات السيئة بأفعال مثبتة تدل على التصنع والكبر والرياء واستصغار الآخرين..، وفي المقابل نفى عنهم كل صفات الكرم والحلم والعلم، باستعمال أفعال منفية، وقد قامت هذه الأفعال بالدور الذي كانت ستقوم به تلك الأوصاف والأسماء وزادت على وصفه

[1]—ابن جبير: رحلة ابن جبير، مصدر سابق، ص 83.

بلاغة وجمالا، وأعطته استمرارية وحركية، ليقدم لنا صورة شاملة عن طباع وأخلاق أهل بغداد آنذاك، رغم أنه أغرق في الذاتية حتى اتهمه أحدهم أنه كان قاسيا في وصفه هذا [1]

لقد اعتمد "ابن جبير" كثيرا على وصف الشخصيات من خلال أفعالها، وكان دافعه إلى ذلك تقديرا وإعجابا أو سخطا وازدراء، يقول في وصف أهل مكة:" ولأهل هذه الجهات المشرقية كلها سيرة حسنة، عند مستهل كل شهر من شهور العام يتصافحون ويهنئ بعضهم بعضا ويتغافرون ويدعو بعضهم لبعض كفعلهم في الأعياد، وتلك طريقة من الخير واقعة في النفوس"[2]

ورغم قصر هذا الوصف إلا أنه يصور لنا مشهدا يضج حركة وحيوية اكتسبها من خلال توظيف الرحالة أفعالا تدل على التسامح والتغافر والتراحم والمودة بين هؤلاء الأشخاص، وكذلك فعل "ابن جبير" في مواضع أخرى من الرحلة أثناء وصفه للشخصيات فيما يمكن أن نطلق عليه "حركة سردية واصفة".

ب- الوصف الديناميكي لشيء: يكون من خلال إعطاء الوصف حركة وحيوية، وتتم هذه العملية بطريقتين:

- أنسنة الأشياء: وتتم بمنح الأشياء صفات خاصة بالإنسان حيث: " تصبح للأشياء أوصافا إنسانية فتتحول من طبيعتها الجامدةإلى كائن متحرك، إن لم يكن إنسانا فهو شبيه بالإنسان ويوصف هذا الشيء بأوصاف من باب المجاز لا الحقيقة"[3] إذ يلجأ في الوصف إلى أساليب بلاغية مثل الكناية والاستعارة والتشبيه، ليضفي صبغة إنسانية على موضوعه.

وفي رحلة ابن جبير نجد هذا الأسلوب من الوصف، وقد عمد الرحالة إلى توظيف أنواع الكنايات والاستعارات والتشبيهات.... في وصف الأشياء والأماكن، وذلك بقصد إضفاء الحيوية والحركة على موصوفاته

---

[1]– ينظر: زكي محمد حسين، الرحالة المسلمون في العصور الوسطى، مرجع سابق، ص 6، 7.

[2]–ابن جبير: رحلة ابن جبير، مصدر سابق، ص 83.

[3]– فوزية قفصي، شعرية الوصف في أدب الرحلة العربي القديم- ابن بطوطة أنموذجا، مرجع سابق، ص 161.

وإبعاد الملل والرتابة، ولعب الخيال لعبته في إثارة تشويق القارئ ومشاركة الرحالة أحاسيسه المختلفة الناتجة عن تفاعله مع الأشياء والأماكن، يقول في وصف ليلة دخوله مكة محرما: "ودخلنا مكة (....) وكان اسراؤنا تلك الليلة المذكورة، والبدر قد ألقى على البسيطة شعاعه، والليل قد كشف عنا قناعه (...) فيا لها من ليلة كانت في الحسن بيضة العقر، فهي عروس ليالي العمر وبكر بنيات الدهر إلى أن وصلنا، في الساعة المذكورة من اليوم المذكور، حرم الله العظيم، ومبوأ الخليل إبراهيم، فألفينا الكعبة الحرام عروسا مجلوة مزفوفة إلى جنة الرضوان محفوفة بوفود الرحمان"[1]

لقد تعددت الموصوفات في النص السابق، فنجده يصف البدر، والليل، والليلة المخصوصة، والكعبة الشريفة، بصفات إنسانية لا يفعلها إلا البشر، فالبدر والليل تجليا رجلين والليلة المخصوصة والكعبة المشرفة ظهرت بمظهر العروسين، وقد كان للخيال دور بارز في الوصف السابق، إذ عمد الرحالة إلى الاستعانة بالاستعارة مرة وبالتشبيه مرة أخرى ليصور لنا هذا الموقف الذي عاشه ليلة إحرامه بكل ما يحمله من مشاعر البهجة والسرور لأداء مناسك الحج، وقد استعمل "ابن جبير"، العروس، باعتبارها الأنموذج الإنساني الأعلى للحسن والجمال والتميز والشباب والحركة وغيرها من الصفات التي آثر أن ينسبها للمدن والأماكن التي لفتت إعجابه وصورها على أنها عروس في منتهى الحسن والجمال، يقول في وصف مدينة دمشق "جنةالمشرق، ومطلع حسنه المؤبق المشرق، وهي خاتمة بلاد الإسلام التي استقريناها، وعروس المدن التي اجتليناها، قد تحلت بأزاهير الرياحين، وتجلت في حلل سندسية من البساتين (...) وتزينت في منصتها أجمل تزيين (....) تتبرج لناظريها بمعتلى صقيل، وتنادي: هلموا إلى معرس للحسن ومقيل"[2]

---

[1]—ابن جبير: رحلة ابن جبير، مصدر سابق، ص 47.

[2]—المصدر نفسه، ص 193.

إن أنسنة هذا المكان منحته صفات إنسانية وجعلته يقوم بأفعال يختص بها الإنسان فحولته من طبيعة جامدة ساكنةإلى كائن يتحرك ويتفاعل مع الآخرين، وهو الوصف الذي ينطبق على كثير من المدن الأخرى التي وصفها "ابن جبير" في رحلته يبرز العلاقة التي تربطه بالمكان، وهي علاقة تشبه العلاقات الإنسانية التي نعرفها.

- تشكيل شيء: يعتبر هذا النمط من الوصف "الطريقة الوحيدة التي يتم فيها الوصف دون قطع صيرورة المحكي"[1]، وهناك من يعتبر هذا النمط وصفا مسردنا أو نوعا من الوصف المحكي: "وعلى العموم فمع أن هذا النمط من الوصف يضم نوعا من التطور الزمني إلا أنه لا يمكن بأي شكل من الأشكال أن يتحول هذا الوصف للأفعال إلى متتالية سردية" [2]

وفي رحلة "ابن جبير" نجده استعمل هذا النمط خاصة في وصف عملية أداء مناسك الحج، [3] حيث يصفها خطوة بخطوة مراعيا الترتيب الزماني والمكاني لهذه العملية من بدايتها إلى نهايتها ومركزا على كل تفاصيلها وجزئياتها لتبدو أمامنا مثل البث التلفزي المباشر (الحي) لأحداث معينة.

وفي موضع آخر نجده يصف عملية جني الرطب وهو أحد أنواع التمور بمكة فيقول:

" وهو في نهاية من الطيب واللذاذة، لا يسأم التفكه به، وابانه عندهم عظيم، يخرج الناس إليه كخروجهم إلى الطبيعة أو كخروج أهل المغرب لقراهم أيام نضج التين والعنب، ثم بعد ذلك عند تناهي نضجه يبسط على الأرض قد ما يجف قليلا ثم يركم بعضه على بعض في السلال والظروف ويرفع"[4]، فهو يصف عملية الجني هذه في مشهد يضج حركة وحيوية من خلال استعماله هذه الأفعاليخرجون، يبسط، يركم، يرفع، ثم تشكيل هذه

---

(1)—فوزية قفصي، شعرية الوصف في رحلة ابن بطوطة ، مرجع سابق، ص 161.

(2)—المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

(3)—ينظر ابن جبير: رحلة ابن جبير، مصدر سابق، ص 110، 111، 112.

(4)—ابن جبير: رحلة ابن جبير، مصدر سابق، ص 81.

العملية من خلال ترتيب الأفعال السابقة من بدايتها إلى نهايتها، فقد ابتدأت بالخروج إليه ثم بسطه على الأرض ثم ركمه في السلال ليتم رفعه في الأخير، وهو المشهد النهائي الذي تشكل شيئا فشيئا منذ بدء العملية إلى نهايتها.

وفي المجمل أعطى الوصف الديناميكي للأشياء -بنمطيه- في رحلة "ابن جبير"، بعدا حيويا آخر تمثل في إضفاءه نوعا من النشاط والحركة على أوصافه وساهم إلى حد بعيد في التخلص من الرتابة والملل الناتجين عن كثرة الأوصاف في هذه المرحلة.

2- وصف الفعل:

ويتم بالتركيز على الفعل في حد ذاته على النحو التالي:

أ- وصف وضعية أو حالة: ويختلف عن الوصف العادي، فيظهر وكأنه لوحة فنية حافلة الألوان أو مشهدا تمثيليا يفيض بالحركة والعاطفة، ويختلف "عن المحكي من حيث الفعل الموظف فيه والذي لا يفيد لا البداية ولا الوسط ولا النهاية، وكأنه نوع من التوقف الصوري، فهو عبارة عن ربط للأفعال ضمن ترابط زمني لأن الزمن متوقف"[1]

ورغم أن هذا النوع من الوصف قليل الحضور في المسرودات القديمة، إلا أننا يمكن أن نمثل له ببعض المشاهدات التي وصفها "ابن جبير" في رحلته، حيث أولى الجانب الوجداني عناية خاصة واهتم بتصوير تفاعلهم مع الأشياء والأدوات من خلال وصف رد فعلهم تجاهها، ولنقرأ مثلا وصفه مشهد احتفال أهل مكة ليلة خروجهم إلى العمرة قائلا: "فكانوا يخرجون على ترتيب عجيب، فالفرسان منهم يخرجون بخيلهم ويلعبون بالأسلحة عليها، والرحالة يتواثبون ويثاقفون بالأسلحة في أيديهم حرابا وسيوفا وحجفا وهم يظهرون التطاعن

[1]– فوزية قفصي، شعرية الوصف في أدب الرحلة، ابن بطوطة أنموذجا، مرجع سابق، ص 161.

بعضهم لبعض (...) وكانوا يرمون بالحراب إلى الهواء ويبادرون إليها لقفا بأيديهم وهي قد تصوبت اسنتها على رؤوسهم"[1]

إن "ابن جبير" في تصويره لهذا الاحتفال إنما كان يصف الأفعال التي شكلته، فقد وصف فعل الخروج ، وقال بأنه على ترتيب عجيب ووصف خرو ج الفرسان وهم يلعبون بالأسلحة ثم الر حلة والحالة التي خرجوا فيها، كما استعمل أفعالا تدل على الاحتفال مثل: يلعبون، يتواثبون، يتقافزو ن...وهي أفعال كلها حركة وحيوية، أضفت على المشهد بهجة وفرحا ليصور لنا تفاعل الناس مع هذا الحدث بكل أبعاده .

وفي مشهد آخر تتداخل فيه المشاعر في وقت واحد لترسم لنا لوحة متعددة الألوان يصف "ابن جبير" عادة أهل مكة في التبرك بماء المطر الذي يصب فوق الحجر الأسود المبارك فيقول: "وتبادر الناس إلى الحجر فوقفوا تحت الميزاب المبارك متجردين عن ثيابهم، يتلون الماء الذي يصبه، برؤوسهم وأيديهم و أفواههم مزدحمين عليه ازدحاما عظيما، أحدث ضوضاء عظيمة، كل يحرص على أن ينال جسمه من رحمة الله نصيبا، ودعاؤهم قد علا ودموع أهل الخشوع منهم تسيل، فلا تسمع إلا ضجيج دعاء أو نشيج بكاء، والنساء قد وقفن خارج الحجر ينظرن بعيون دوامع، وقلوب خواشع، يتمنين ذلك الموقف لوظفرن به" [2] ، فيصور لنا في هذا المشهد حالتين مختلفتين، حالة الرجال الذين تمكنوا من الوصول إلى الحجر وتناول الماء الذي كان يصب من أعلاه ووصف حرصهم على ذلك، وجو البهجة والخشوع الذي كان سائدا، في المقابل وفي الوقت نفسه، نجد النساء اللاتي لم يتمكن من الوصول إلى الحجر، وقد وصف حالة الحزن الذي كان يغشاهن وهن يراقبن الرجال من بعيد في جو من الأمل والتمنى بالوصول لذلك الموقف، وقد وظف الرحالة أفعالا مثل: يتلون، يحرص، ينال، تسيل، يتمنين.... وهذه

[1]—ابن جبير: رحلة ابن جبير، مصدر سابق، ص 88.

[2]—المصدر نفسه، ص 77.

الأفعال لا تشير إلى تتابع الأحداث من بدايتها إلى نهايتها، إنما تشير إلى الأحداث نفسها التي وقعت في اللحظة الواحدة، وكأن الزمن قد توقف أو كأن الأحداث صارت تتشكل خارج حدود الزمن، ليتم التركيز على الفعل في حد ذاته دون الحاجة إلى متابعة تطوره الزمني، ويمكن أن نستخرج من النص فعلين يعتبران محور عملية الوصف هذه الأول هو "يتلون"، وكل ما جاء بعد هذا الفعل من أوصاف أو أحداث متعلق به بطريق مباشرة أو غير مباشرة، فالازدحام والحرص والدعاء والخشوع والبكاء كلها أوصاف ارتبطت بتلك اللحظة التي يتشكل فيها ذلك الفعل، في المقابل نجد الفعل الثاني والمتعلق بالحالة الثانية، وهو "ينظرن"، حيث يمكننا رصد هذا الفعل من خلال المفردات والعبارات المرتبطة به فنلمس مدى الحزن الشديد الممزوج بمشاعر الخشوع والأمل تطلعا لمعايشة الموقف المذكور.

لقد صور لنا ابن جبير حالتين مختلفتين في مشهدا واحد، واهتم بنقل التفاصيل والجزئيات ليكون لوصفه هذا بعدا وجدانيا استطاع تجسيده في لوحة فنية متداخلة الأشكال والألوان.

ب- وصف حركة: يكون هذا النمط من الوصف على شكل "مقطع أو متتالية سردية من الحركات الزمنية المنظمة، وهنا قد يتعلق الأمر بمتتالية تعاقدية، وفي كل الحالات يخضع تنظيم الوصف للمبدأ التالي: إن أي حدث إجمال يقسم إلىأحداث صغيرة متتابعة"[1]

ويظهر جليا مدى اعتماد "ابن جبير" على هذا النمط من الوصف في رحلته، حيث قام بتوظيفه في وصف حركة سير الرحلة بين الأماكن وما تخللها من مشاهدات وأحداث فهو يقول "ورحلنا مع عشي اليوم المذكور وأسرينا طول الليل، وأصبحنا يوم السبت الموفي عشرين منه بشط دجلة فنزلنا مريحين، ومن ذلك الموضع يستصعب الماء ليوم وليلة فاستصحبناه، ودخلنا ذلك اليوم ضحوة، فأسرينا إلى الليل ونزلنا لأخذ نفس راحة واختلاس سنة

[1]– فوزية قفصي، شعرية الوصف في أدب الرحلة العربي القديم، ابن بطوطة، أنموذجا، مرجع سابق، ص 162.

نوم فهو منا هنيهة، ورحلنا وأسادنا إلى الصباح، وتمادى سيرنا إلى أن ارتفع النهار من يوم الأحد بعده فنزلنا قائلين بقرية على شط دجلة تعرف بالجديدة"[1]

يصف "ابن جبير" في هذا المقطع حركة سير الرحلة، والحدث الإجمالي هو وصوله إلى شط دجلة، ليعقب ذلك سلسلة من الأحداث الصغيرة المتتالية عبر عنها بهذه الأفعال: فنزلنا، فاستصحبنا، ورحلنا، فأسرينا، أسأدنا، فنزلنا، ليصل بعدها إلى حدث إجمالي آخر يعتبر المحطة الثانية في حركة السير هذه وهو الوصول إلى قرية "الجديدة" على شط دجلة، لنبدأ سلسلة أخرى من الأحداث الصغيرة المتتالية الأخرى وتبدو الحركة في هذا المقطع متسارعة نوعا ما إذا ما قارناها بالحركة في مواضع أخرى ذلك قوله: "ثم رحلنا منها صبيحة يوم السبت إلى مدينة "بانياس"، واعترضنا في نصف الطريق شجرة بلوط عظيمة الجرم متسعة التدويح أعلمنا أنها تعرف بشجرة الميزان (...) فرحلنا عنها عشي يوم السبت المذكور إلى قرية تعرف "بالمسينة"" بمقرنة من حصن الأفرنج المذكور فكان مبيتنا بها، ثم رحلنا منها يوم الأحد سحرا، واجتزنا في طريقنا بين هونين وتبنين بواد ملتف الشجر، وأكثر شجره الرند، بعيد العمق (...) وانتهينا إلى حضن كبير من حصون الإفرنج يعرف بتبنين وهو موضع تمكيس القوافل، وصاحبته خنزيرة تعرف بالملكة (...) ورحلنا من تبنين دمرها الله، وطريقنا كله على ضياعمتصلة وعمائر منتظمة مكانها كلهم مسلمون"[2]

وصف "ابن جبير" حركة سير الرحلة في هذا النص على شكل متتالية سردية مشكلة من حركات زمنية منظمة، وتبدو الحركة في هذا المقطع متباطئة نوعا ما والسبب راجع إلى تنويع الرحالة في أوصافه بين وصف الحركة ووصف المكان ووصف الأشخاص.

---

[1]—ابن جبير: رحلة ابن جبير، مصدر سابق، ص 171.

[2]—المصدر نفسه، ص 224، 225.

وعلى العموم فإن السرد في رحلة "ابن جبير" يحمل دلالات وصفية تعبر عن طبيعة الحركات التي تزخر بها الرحلة، وهو إلى جانب الوصف يتظافران في تشكيلة واحدة، كما أن تظافرهما وهب الحياة لأماكن جامدة ومنح الحركة لأشياء ساكنة.

رابعا- العمليات القاعدية للوصف في الرحلة:

يجمع الدارسون على أن الوصف –بصفة عامة- يخضع "لقواعد ذكرها "ج. م. آدم" على شكل عمليات قاعدية، هذه القواعد هي:

عملية ترسيخ أو تعيين.

عمليات التمظهر.

ج- عمليات التموضع ضمن علاقة.

د- عملية إعادة التركيب أو إعادة البناء."[1]

وتتم عملية الوصف في رحلة "ابن جبير" ضمن هذه العمليات السابقة وفقا للخطوات التالية:

1- تسمية الموصوف وتعيين موضوع الوصف:

حيث يعمد "ابن جبير" في بداية وصفه إلى وضع اسم للموضوع الموصوف في شكل عنوان، فنجد عناوين مثل: قلعة القاهرة، مارستان المجانين، مسجد ابن طولون، كنيسة الانطاكي، أهل عيذاب..... وغيرها من الأشياء التي وصفها "ابن جبير" ،وفي بداية نص الوصف نجده قد يعيد ذكر اسم الموصوف وطبيعته، مثل قوله في وصف جدة: "وجدّة هذه قرية..."[2]، أو يرتبها كما فعل في وصفه أهل عيذاب على النحو التالي:" وأهلها الساكنون بها من قبيل السودان يعرفون بالبجاة"[3]، حيث يذكر طبيعة الموصوف ثم يقوم بتسميته.

---

[1]– فوزية قفصي، شعرية الوصف في أدب الرحلة، ابن بطوطة أنموذجا، مرجع سابق، ص 165.

[2]–ابن جبير: رحلة ابن جبير، مصدر سابق، ص 43.

[3]–المصدر نفسه، ص 39.

وعلى العموم فإن "ابن جبير" يدعو المتلقي إلى مشاركته في وضع تصور معين حول موصوفاته من خلال تقديمها في بداية الوصف فلا يدع مجالا لأي مفاجأة أو عدم التوقع، ليكون المتلقي على وعي تام ومسبق بموضوع الوصف وطبيعة الشيء الموصوف.

2-تجزئة الكل وتقسيمه:

وهو ما يعطي الوصف نوعا من التفصيل، حيث يبدأ بوصف الشيء وصفا عاما وغير مفصل، ثم يعرج إلى أجزائه، يقول "ابن جبير": "البيت المكرم له أربعة أركان (...) وأول ما يلقي الداخل على الباب عن يساره الركن الذي خارجه الحجر الأسود، وفيه صندوقان فيهما مصاحف، وقد علا هما في الركن بويبان من فضة كأنهما طاقان ملتصقان بزاوية الركن، وبينهما وبين الأرض أزيد من قامة، وفي الركن الذي يليه وهو اليساني كذلك لكونهما انقلعا وبقي العمود الذي كانا ملصقين عليه، وفي الركن الشاسي كذلك وهما باقيان، وعن يمينه الركن العراقي وفيه باب يسمى باب الرحمة يصعد منه إلى سطح البيت المكرم"[1]

أما الغرض من هذه التجربة فإنه تعطينا تصورا واضحا وجليا عن الشيء الموصوف وتساعدنا على تمثله تمثلا دقيقا بكل أجزائه.

3- توظيف صفات وخصائص الأجزاء المقسمة:

فيعتمد بذلك وصفا متدرجا يبدأ من الخارج ويتعمق في الداخل أو ينطلق من الكل ليفصل فى الأجزاء، وقد يتعمق أكثر فأكثر فيسلط الضوء على الجزء بكل تفاصيله إما توخيا للدقة والصدق في نقل المعلومات أو بسبب الإعجاب الشديد الموصوف أو قد يجتمع السببان معا، ومثال ذلك وصفه للمدن التي زارها والمرافق

[1]—ابن جبير: رحلة ابن جبير، مصدر سابق، ص 48، 49.

الموجودة في هذه المدن من مساجد ومدارس ومستشفيات وأسواق وغيرها، ثم تجده يتناول هذه المرافق فتراه يصف المسجد بأجزائه ويتعمق أكثر فينتقل إلى هذه الأجزاء ويصفها، ليطغى بذلك أسلوب الاسترسال على وصفه ومن أمثلة ذلك وصفه مناسك الحج حيث وصف كل ما عاينه مذ دخل مكة المكرمة محرما إلى أن غادر أرض المدينة المنورة عائدا إلى وطنه، "فقد استغرق هذا كله أكثر من ثلث الكتاب"[1] يقول في وصف مكة وبعض مرافقها: "هي بلدة قد وضعها الله عز وجل بين جبال محدقة بها، وهي بطن واد مقدس كبيرة مستطيلة، تسع من الخلائق ما لا يحصيه إلا الله عز وجل، ولها ثلاثة أبواب: أولها باب المعلى ومنه يخرج إلى الجبانة المباركة وهي الموضع الذي يعرف بالحجون (....) وبالجباية المذكورة مدفن جماعة من الصحابة (....) وفيه الموضع الذي صلب فيه الحجاج بن يوسف جازاه الله جثة عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما (...) وعن يمينك إذا استقبلت الجبانة المذكورة، مسجد في سبيل بن جبلين" [2] ومازال يصف الباب الأول ويسترسل في وصفه حتى يصل إلى الثاني والثالث، وكل الأجزاء المتعلقة بها.

4-تأطير موضوع الوصف زمانيا ومكانيا:

وكأنه يعطي موضوع وصفه بعدين: الأول تاريخي والثاني جغرافي ، فيذكر الزمن بالتحديد ويعين المكان الموجود فيه الموصوف وقد يكون الزمن جزء من موضوع الوصف، والشأن نفسه بالنسبة للمكان، حيث يقول في وصف ليلة النصف شعبان: "هذه الليلة المباركة، أعني ليلة النصف من شعبان عند أهل مكة معظمة للأثر الكريم الوارد فيها، فهم يبادرون فيها إلى أعمال البر من العمرة والطواف والصلاة أفرادا وجماعة"[3] فالزمن في هذا الوصف هو ليلة النصف من شعبان، والمكان هو مكة المكرمة، أما موضوع الوصف فهو الاحتفال بهذه الليلة،

---

[1]– زكي محمد حسين، الرحالة المسلمون في العصور الوسطى، مرجع سابق، ص 79.

[2]–ابن جبير: رحلة ابن جبير، مصدر سابق، ص 70، 71.

[3]–المصدر نفسه، ص 97.

فليلة النصف من شعبان هي الإطار الزماني لموضوع الوصف كما أنها جزء من موضوع الوصف في الوقت نفسه، وفي عبارة أخرى يقول: " وفي ظهر يوم الثلاثاء الرابع من شهر ربيع الآخر المذكور، وهو السادس والعشرون من شهر يوليه، كان نزولنا بجدة (...) وجدة هذه قرية على ساحل البحر المذكور أكثر بيوتها أخصاص..."[1] والزمن في هذا الوصف هو ظهر يوم الثلاثاء الرابع من شهر ربيع الثاني والمكان هو جدة موضوع الوصف نفسه .

إن عناية "ابن جبير" بالتأطير الزماني والمكاني لموضوع وصفه إنما الغرض منه الالتفات إلى الظروف الخارجية (التاريخية والجغرافية) المحيطة به، والتي لها صلة مباشرة بموضوع وصفه

5- تشبيه مقارني أو مجازي يسمح بوصف الكل أو الأجزاء:

حيث يتم ذلك "بوضعها في علاقة تماثلية مع أفراد أو أشياء وأخيرا يتم إعادة بناء الشيء الموصوف حيث يمكن إعادة تسمية الشيء الموصوف في وسط أو نهاية الوصف"[2] وهذا ما نراه في وصف "ابن جبير" للأماكن التي لها أثر كبير في نفسه ومن ذلك وصفه لمدينة دمشق وتشبيهه أياها تشبيهات كثيرة مثل "جنة المشرق" و"عروس المدن" [3] وقد تمثلت الليلة التي وصل فيها "ابن جبير" مكة في صورة العروس البكر[4] واستحضر صورة طفل يتعلق بأحضان أمه في وصفه رؤية الطائفين بالبيت الحرام يتعلقون بأستار الكعبة حيث قال: " فهم إذا طافوا بالكعبة المقدسة يتطارحون عليها تطارح البنين على الأم المشفقة لائذين بجوارها متعلقين بأستارها فحيثما علقت أيديهم منها تمزق لشدة اجتذابهم لها وانكبابهم عليها"[5]

---

[1]—ابن جبير: رحلة ابن جبير، مصدر سابق، ص 43.

[2]— فوزية قفصي، شعرية الوصف في أدب الرحلة ابن بطوطة أنموذجا، مرجع سابق، ص 166.

[3]—ابن جبير: رحلة ابن جبير، مصدر سابق، ص 102، 103.

[4]—المصدر نفسه، ص 90.

[5]— المصدر نفسه ، ص ن.

وهو يمثل صورة تعلق الطائفتين بالكعبة الشريفة بصورة تعلق الطفل الصغير بأحضان أمه والجامع بينهما هو الشعور الواحد بالحب والتعلق والانجذاب.

وفي تصويره لبعض أجزاء البيت العتيق يقول:" وتحت كل صلة منها ثقب مستدير في دور الشبر منفوذ يخترقه الهواء يضرب فيه شعاع الشمس أو القمر فليوح كأنه أقمار مستديرة"[1]وغيرها من التشبيهات والصور التمثيلية التي استعان بها الرحالة، لإعطاء وصفه بعدا جماليا وتقبلا لدى المتلقي.

[1]—ابن جبير: رحلة ابن جبير، مصدر سابق، ص 92.

الخاتمة

الخاتمة:

وبعد :

فقد انتهت رحلتنا مع "ابن جبير " في نصه الشهير ، حيث لا يسعنا في آخر المطاف إلا أن نحوصل نتائج هذا البحث الذي لا ندعي له الكمال بأية حال ، و إنما ننتظر أبحاثا أخرى تنقب فيه لتستخرج مافاتنا ولم يصل إليه مجهودنا في بحثنا هذا و الموسوم ب"**شعرية الوصف في أدب الرحلة -ابن جبير أنموذجا-**"لنخلص في الختام إلى جملة من النتائج نلخصها فيما يلي:

- يعتبر أدب الرحلة من فنون الأدب العربي القديم، وعلى الرغم من الاختلاف والتباين في وضع مفهوم محدد وواضح له، إلا أن هناك إجماعا من قبل النقاد والدارسين، على انفتاح النص الرحلي على كثير من العلوم والفنون الأدبية المختلفة، ما يؤكد ثراء هذا الجنس الأدبي شكلا و مضمونا، وقد أسميناه: جنسا هجينا نظرا لهذه الخصوصية ، وقدرته العجيبة في الجمع بين الأشكال المختلفة والمضامين المتنوعة.
- إن " الشعرية" مصطلح فضفاض ، يعني في مفهومه العام تلك القوانين التي تحكم أي خطاب أدبي وهدفها تشخيص "قوانين الأدبية" في أي خطاب لغوي.
- الوصف في الرحلة يختلف عن الوصف في أي عمل أدبي آخر، فالرحلة تعنى بالجانب الواقعي المادي أكثر من الجانب الخيالي، وشعرية الوصف عموما لها علاقة بالخيال والمتخيل، أما شعرية الوصف في الرحلة فهي مرتبطة أكثر بالجانب التخييلي للمتلقي، وتكمن براعة الرحالة في قدرته على التصوير الفني للأشياء.
- يتشكل وصف الأشخاص والأماكن والأشياء في الرحلة -عموما- وفي رحلة "ابن جبير" –خاصة- على الصورة التي يقدمها الرحالة عن الموصوف وإشراكه المتلقي في رسم تلك الصورة عن طريق التخييل

- يبدو على رحلة 'ابن جبير" الحضور القوي لشخصيته في بعدها الديني والفقهي، ما أدى إلى توجهها باتجاه مسار واحد في الوصف، ولالتزامه بالمعيار الأخلاقي الذي قيد حريته -نوعا ما- في إطلاق العنان لعواطفه الجياشة وخياله الجانح.
- وصف "ابن جبير" ما شاهده وعاينه أثناء رحلته وتنوعت أوصافه بين وصف للأشخاص وعاداتهم وتقاليدهم، ووصف للأماكن والأشياء، واختلفت قيمة الوصف البلاغية باختلاف مكانة الموصوف وأهميته الدينية والأخلاقية، ويبدو واضحا سيطرة النزعة الذاتية في أوصافه، كما يلاحظ اعتماده على عنصر التصوير الفني، ورسم صورة الموصوف في كل التفاصيل الداخلية والخارجية والتي ساعدت في تمثله من طرف المتلقي.
- يحضر السرد في رحلة "ابن جبير" حاملا دلالات وصفية تعبر عن طبيعة الحركات التي تزخر بها الرحلة، وهو إلى جانب الوصف يتضافران في تشكيلة واحدة منحت الحياة والحركة للأشياء الجامدة الساكنة.
- يخضع الوصف في رحلة "ابن جبير" إلى جملة من العمليات القاعدية التي تعطي الجانب الشكلي بعدا جماليا فتتحقق المتعة بالإضافة إلى الفائدة التي حققها المضمون.

وفي الأخير نسأل الله تعالى أن نكون قد وفقنا بجهدنا هذا في إنارة ولو جزء بسيط من الموضوع الذي تطرقنا إليه.

وعلى الله قصد السبيل

قائمة المصادر والمراجع

قائمة المصادر والمراجع

القرآن الكريم

أولا المصادر:

1. ابن جبير: رحلة ابن جبير، دار القصبة للنشر، الجزائر، دط،2001.

ثانيا المراجع:

1- المعاجم والموسوعات

1. ابن فارس، مقاييس اللغة، تح: عبد السلام محمد هارون، ج2، دار الفكر، بيروت، لبنان، د.ط، 1979.
2. ابن فارس، مقاييس اللغة، تح: عبد السلام محمد هارون، ج3، دار الفكر، بيروت، لبنان، د.ط، 1979.
3. محمد بن مكرم بن منظور، لسان العرب، دار المعارف، القاهرة ،ج م ع ،د ط، دت
4. الخليل بن أحمد الفراهيدي: معجم العين، ج2 مادة رحل، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2003م.
5. مجدي وهبه وكامل المهندس: معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب مكتبة لبنان، بيروت، ط2، 1984.

2- الكتب:

1. ابن بطوطة، رحلة ابن بطوطة تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، ج1، تح: محمد عبد المنعم العريان، دار إحياء العلوم، بيروت، لبنان، ط1، 1987.

2. أبو الحسن علي المسعودي :مروج الذهب و معادن الجوهر ، راجعه:كمال حسن مرعي ،المكتبة العصرية ،بيروت ،ط1 ،2005

3. أبو الريحان محمد بن أحمد البيروني: كتاب في تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة أو مرذولة ، دائرة المعرف العثمانية، حيدر أباد انتهرابردلش، الهند، د ط، 1957 .

4. أبو الفرج قدامة بن جعفر: نقد الشعر، تح: محمد عبد المنعم خفاجي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، د ط، د ت.

5. أبو حامد عبد الرحيم الأندلسي الغرناطي: تحفة الألباب ونخبة الإعجاب، تح: اسماعيل العربي، دار الآفاق الجديدة، المغرب، ط1، 1993.

6. أبو عبد الله العبدري: رحلة العبدري، تح: علي إبراهيم كردي، دار سعد الني للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، ط2، 2005.

7. أحمد أبو سعد، أدب الرحلات وتطوره في الأدب العربي: منشورات دار الشرق الجديد، بيروت، ط1، 1962.

8. أحمد بن فضلان بن العباس بن راشد بن حماد: رسالة بن فضلان ، تح: سامي الجهان دمشق، المطبعة الهاشمية، د ط 1960م.

9. أحمد بن فضلان: رحلة ابن فضلان إلى بلاد الترك والروس والصقالبة، تح: شاكر لعيبي، السويدي للنشر والتوزيع والمؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان، ط1، 2003م.

10. أحمد رمضان أحمد:الرحلة والر ّحالة المسلمون، دار البيان العربي للنشر والتوزيع، جدة، السعودية، 2013.

11.إسماعيل العربي، دور المسلمين في تقدّم الجغرافية الوصفية والفلكية، ديوان المطبوعات الجامعية، بن عكنون، الجزائر.

12. إغناطيوس يوليانوفتش كراتشكو فسكي: تاريخ الأدب الجغرافي، ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم لجنة التأليف والترجمة والنشر ،القاهرة ، ح1، د. ط 1963.

13. بديع يعقوب إميل وعاصي ميشال: معجم المفصل في اللغة والأدب، دار العلم للملايين، بيروت، ط1، 1987ج2.

14.تزفيطان طودوروف: الشعرية تر، شكري المبخوث ورحماء بن سلامة، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب، ط2، 1990.

15. جمال الدين فالح الكيلاني: الرحلات والرحالة في التاريخ الإسلامي-دراسة تاريخية- دار الزنيقة، القاهرة مصر،د.ط، د.ت.

16. جورج غريب: أدب الرحلة تاريخيه وأعلامه. المسعودي ابن بطوطة، الريحاني- دار الثقافة بيروت، لبنان، ط، د ت.

17. الحبيب مونسي:شعرية المشهد في الإبدا ع الأدبي، دار الغرب للنشر والتوزيع ، وهران، 2003.

18. حسن ناظم: مفاهيم الشعرية -دراسة مقارنة في الأصول والمنهج- المركز الثقافي العربي،بيروت، لبنان، ط1، 1994.

19. حسني محمود حسين: أدب الرحلة عند العرب، دارالأندلس، ط2، 1983.

20. حسين محمد فهيم: أدب الرحلات، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الأعلى للثقافة والفنون والآداب، الكويت، د ط، 2012.

21. حسين مؤنس: تاريخ الجغرافية والجغرافيين في بلاد الأندلس، مجمع اللغة العربية، ط2 ، القاهرة، 1986.

22. حسين نصار: أدب الرحلة، مكتبة لبنان، الجيزة، مصر، ط 1، 1991، ص 101.

23. سيد حامد النساج: مشوار كتب الرحلة- قديما وحديثا- مكتبة غريب القاهرة، مصر، ط.د، د.ت.

24. شعيب حليفي: الرحلة في الأدب العربي- التجنس آليات الكتابة خطاب المتخيل- مكتبة الأدب المغربي، د ط، 2002.

25. شوقي ضيف: فنون الأدب العربي، الفن القصصي الرحالات، دار المعارف، القاهرة، ط4، 1987.

26. عبد العليم محمد إسماعيل: تقنيات السرد أسلوب أدبية الرحلة، جائزة الطيب صالح العالمية للإبداع الكتابي، الدورة الثامنة، 2018.

27. علي إبراهيم الكردي: أدب الرحل في المغرب والأندلس، منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب، وزارة الثقافة، دمشق، 2013.

28. عواطف محمد يوسف نواب: الرحلات المغربية والأندلسية، مصدر من مصادر تاريخ الحجاز في القرنين السابع والثامن الهجريين، دراسة تحليلية مقارنة- الرياض، السعودية د ط، 1996م.

29. الفرابي أبو نصر، كتاب الحروف، تح: مهدي محسن دار المشرق، بيروت، لبنان، ط2، 1990م.

30. فؤاد قنديل: أدب الرحلة في التراث العربي، مكتبة الدار العربية للكتاب، القاهرة، ط2، 2002.

31. كمال أبو ديب: في الشعرية، مؤسسة الأبحاث العربية، ط1، بيروت، 1987.

32. لسان الدين بن الخطيب: خطرة الطيف -رحلات في المغرب والأندلس- تح: أحمد مختار العبادي، المؤسسة العربية للدراسات والآفاق، بيروت، ط1، 2003، ص 117.

33. محمد الحاتمي: الرحلات المغربية السوسية بين المعرفي والأدبي، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، دط، 2012.

34. محمد بن سلام الجمحي: طبقات فحول للشعراء، ط 1، أحمد إبراهيم، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1982م.

35. محمد صلاح زكي أبو حميدة: دراسات في النقد الأدبي الحديث، د.د، غزة، فلسطين، د.ط، 1426هـ – 2006م.

36. محمد عبد المؤنس عوض: الجغرافيون والرحالة المسلمون في بلاد الشام زمن الحروب الصليبية ، دار عين للدراسات والبحوث الإسلامية والاجتماعية،ط1، 1995.

37محمد عزّ الدين المناصرة: علم الشعريات - قراءة مونتاجية في أدبية الأدب -، دار مجد لاوي للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط1، 2007.

38. محمد مصطفى زيادة: رحلة ابن جبير ورحلة ابن بطوطة، المعهد الخليفي للأبحاث المغربية، بيت المغرب، القاهرة، مصر، 1939.

39. محمد نجيب العمامي:الوصف في النص السردي بين النظرية والإجراء، دار محمّد علي للنشر، صفاقس، تونس، ط1، 2010.

40. مرشد الزبيدي: اتجاهات نقد الشعر العربي في العراق، منشورات الكتاب العرب، بغداد العراق، ط1، 1999م.

41. مشري بن خليفة: الشعرية العربية مرجعياتها وإبدالاتها النصية، دار الحامد للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، د،ط، 2010م.

42. ناصر عبد الرزاق الموافي: الرحلة في الأدب العربي- حتى نهاية القرن الرابع هجري- دار الوفاء للطباعة والنشر، المنصورة، ط1، 1995.

43. نقولا زيادة : الجغرافيا والرحلات عند العرب، بيروت، مكتبة المدرسة ودار الكتاب اللبناني، 1962.

44. نوال عبد الرحمان الشوابكة: أدب الرحلات الأندلسية والمغربية حتى نهاية القرن التاسع الهجري، دار المأمون للنشر والتوزيع، عمان، المملكة الهاشمية الأردنية،دط،2008 .

45. يوسف وغليسي: الشعريات والسرديات، دار أقطاب الفكر، قسنطينة، الجزائر، د ط، 2006.

3- الرسائل والأطروحات:

1. بلال سالم الهروط: صورة الآخر في أدب الرحلات الأندلسية رسالة دكتوراه في اللغة العربية وآدابها ، جامعة مؤتة، الأردن ،2008.

2. المسعود جوادي: الرؤية المركزية- دراسة مقارنة في أنساق الخطابات الرحلية العربية والغربية- رسالة دكتوراه، تخصص أدبي، جامعة قاصدي مرباح، ورقلة، 2016-2017.

4- المجلات والدوريات

1. خولة بن مبروك: الشعرية بين تعدد المصطلح واضطراب المفهوم، مجلة المخبر، أبحاث في اللغة والأدب الجزائري، جامعة بسكرة، الجزائر، العدد 9، 2013.

2. رشا الخطيب :صور الآخر في أدب الرحلة الصقلية نموذجا عند ابن حوقل وابن جبير ،منشور في مجلة العرب (الرياض) ج7و8 السنة 43 ، محرم وصفر 1430هـ /كانون2 وشباط 2009.

3. فوزية قفصي: شعرية الوصف في أدب الرحلة، رحلة ابن بطوطة أنموذجا، مجلة التواصل، العدد 37، جامعة باجي مختار، عنابة، مارس 2013.

فهرس المحتويات

مقدمة ..... أ

الفصل التمهيدي: الرحلة في الأدب العربي القديم ..... د

أولا- حول مفهوم الرحلة 5

ثانيا- أنواع الرحلات وتصنيفاتها 10

ثالثا- أهمية الرحلة في التراث العربي: 16

الفصل الأول شعرية الوصف في أدب الرحلة العربي القديم 26

أولا- حول مفهوم الشعرية: 27

1- لغة: 27

2- اصطلاحا: 28

ثانيا: أصول الشعرية: 32

1- الشعرية عند الغرب 33

2- الشعرية عند العرب 36

ثالثا- الشعرية العربية الحديثة والمعاصرة: 38

1-أدونيس: 38

2-كمال أبو ديب: 39

رابعا- حول مفهوم الوصف 40

1- لغة:..... 41

2- اصطلاحا:..... 41

خامسا- وظائف الوصف في أدب الرحلة العربي القديم..... 43

1- الوظيفة التفسيرية: 43

2- الوظيفة الجمالية: 44

3- الوظيفة السردية:..... 46

4- الوظيفة التصويرية: 48

سادسا- شعرية الوصف الرحلي: 49

1- الصورة:..... 49

2- الخيال والتخييل:..... 51

سابعا- الأشكال البلاغية للوصف..... 52

1-وصف الأشخاص وعاداتهم وتقاليدهم:..... 52

2- وصف المكان 55

3- وصف الزمن 57

4- وصف الحيوان والنبات: 57

الفصل الثاني شعرية الوصف في رحلة ابن جبير 59

أولا : حول الرحلة والرحالة..... 60

1- التعريف بالكاتب: 60

2 مؤلفاته: 60

3- التعريف بالرحلة:..... 61

ثانيا-الأشكال البلاغية للوصف في الرحلة: 65

1-وصف الأشخاص:عاداتهم وتقاليدهم: 65

2 -وصف المكان: 74

ثالثا- حدود العلاقة بين الوصف والسرد في الرحلة:..... 87

1- الوصف من خلال الفعل: 87

2- وصف الفعل: 92

رابعا- العمليات القاعدية للوصف في الرحلة: 97

1- تسمية الموصوف وتعيين موضوع الوصف: 97

2-تجزئة الكل وتقسيمه: 98

3- توظيف صفات وخصائص الأجزاء المقسمة:..... 98

4-تأطير موضوع الوصف زمانيا ومكانيا: 99

5- تشبيه مقاربي أو مجازي يسمح بوصف الكل أو الأجزاء: 100

الخاتمة..... 101

قائمة المصادر والمراجع 101